أبو همام
عبد اللطيف عبد الحليم

القونت لوقانور

دراسة وترجمة



مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ ش عدلي باشا - بالقاهرة

الإهداء

إلى الفردوس الموعود

فى أمسيات أشبيلية بالحى القديم .

أبو همّام

مقدمة

القونت لوقانور أثر أدبى نفيس ، يمثل إحدى ذرى إبداع دون خوان مانويل ، كما يمثل فى الوقت ذاته حلقة اتصال متينة العرى بالثقافة العربية الأندلسية حين تكتب بغير الحروف العربية ، وحين يتزايا ذووها بالزى القشتالى ، لكنها تهتف دائما - مع كل هذا - بأصلها الذى اتكأت عيه ، وتفرعت منه مع بعض الإضافات التى تشهد بأن نقل فكرة ما إلى لغة أخرى يقتضى - عادة - تحويرا لهذه الفكرة ، وإعادة صياغة لها ، وكأنها تشهد أيضا أن التراث الإنسانى ملك للأمم جميعا ، وحسب الأمة الناقلة عن أمة سابقة أن تغرس هذا النبت فى تربتها ، وأن تسقيه بمائها ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل .

وكان كتاب القونت لوقانور بهذه المثابة يذكر بأصوله القديمة المنتزع منها - فى مجمله - ويذكر فى الوقت ذاته بأن هذه الأصول - فى مجملها أيضا - غدت قشتالية الطابع والشيات ، وأن تلاقح الثقافات فى الأندلس خاصة يؤكد أن هذه الثقافة لا تعرف التخوم السياسية أو الجغرافية ولا تعترف بالهزائم العسكرية ؛ لأن الثقافة العربية - آنذاك - كانت تحتل محتلها حتى تصل إلى القصر المالك .

وقد اعتقدنا أن دون خوان مانويل كان يعرف العربية

يقرأ بها أسوة بما هو شائع على أيامه وفى داره ، وفى طبقته التى يعزى إليها ، وقد امتدت يده إلى المصادر العربية مكتوبة وشفوية ، وتأثر بها ونضح هذا التأثر فى كتابه هذا وفى بقية كتبه .

ووقفنا مليا أمام تأثره بكتاب كليلة ودمنة ، وترجم إلى اللاتينية والإسبانية وغيرهما من اللغات ، وتمثل هذا التأثر فى حكايات الإطار التى هى قاسم مشترك فى الكتابين ، وإن كانت معقدة ومكثفة فى الكتاب العربى عنها فى الكتاب الإسباني ، كما توقفنا لدى بعض الحكايات من أصل عربى ، وقارنا بينها ، وهذا ما يعنى القارىء الذى نؤمه ولأننا نعتقد أن التأثير العربى كان أشيع لدى الناس - آنذاك - من التأثير الكلاسيكي كما يقول أميركو كاسترو .

وقد قدمنا بين يدى الفصول المترجمة دراسة عن دون خوان مانويل وعصره وملكاته وثقافته ومؤلفاته ، وحللنا كتاب القونت لوقانور ، وشفعناه بما يناظره من الكتب الأخرى مبينين قيمة الكتاب ومصادره العربية خاصة .

أما الترجمة فقد حاولنا فيها أن نكون أمناء مع النص الأصلى ما استطعنا ذلك ، إلا أننا تخلينا بعض الشىء عن اللغة الجزلة التى هى سمة الترجمة التى نزاولها فى الدراسات النقدية والإبداع الشعري والمسرحى وهذا جزء من الأمانة المتوخاة أيضا ، لأن هذه الأمثال أو الحكايات مكتوبة

بلغة سهلة يسيرة لم نشأ أن تكون رازحة تحت آصار الجزالة وحسبنا هذا اقترابا من الأصل ، ولم يكن ذلك عى حساب الدقة أو قربا من الابتذال والفجاجة .

وينبغى ألا يعزب عن حضرات القراء أن استخدام مصطلح القصة إنما هو استخدام متجوز ؛ لأننا لا نحاكم القص فى هذا الكتاب بأحكام النقد المعاصر فى القصة القصيرة ولذلك فضلنا أن نطلق عليها « حكاية أو مثلا » بمعنى ضرب المثل لا بمعنى الحكمة وإن كانت واردة أيضا .

وأرجو أن يرى القارىء ما رأيته فى هذه الصفحات ، وحسبى أننى لم أدخر جهدا كان فى ذرعى بذله ، والله من وراء القصد .

أبو همّام

المعادى فى ١٥ نوفمبر ١٩٩٢

الدراسة

دون خوان مانويل

رجل يهتم به التاريخ كما يهتم الأدب ،ذو ملكات متعددة في كليهما ، وذو حظ وافر من النشاط الإنساني المؤثر في عصر تتناحر فيه عناصر بشرية بدوافع سياسية وعرقية ، ومطامع وغيرة ذاتية .

نبيل عريق ، حفيد لملك ، وابن لأمير ، وابن أخي ملك خطير ، ابن الأمير دون مانويل ، وحفيد لفرناندو الثالث ، وابن أخي ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم ، وأمه دونيا بياتريث دي سابويا الزوج الثانية لأبيه .

ولد في الخامس من مايو من سنة ١٢٨٢ ، في اسكالونا ، رحل أبوه ، وهو في الثانية من عمره تقريبا ، فكفلته أمه التي هلكت بعد ذلك بست سنوات ، يقول هو عن نفسه :
« عندما مات أبي كان عمري آنذاك عاما وثمانية أشهر »(١) .

وكما يتعلم أبناء العلية تلقى دون خوان تعليمه الأولى على يد مؤدبيه : اللغة اللاتينية ، والتاريخ ، واللاهوت ، والقانون ، وتناصى هذه المعارف في الوقت ذاته المعارف العملية ، تدريبات الفروسية ، والصيد ، والحرب ، إنها التقاليد العريقة التي كان يتلقاها أبناء البيوتات العربية والإسبانية في الأندلس آنذاك ، وهي التي تصقل شخصيات هؤلاء الناشئة ، وتعدهم الإعداد الجيد ، الذي يكون كفاء لمستقبلهم المحفوف بكثير من الصراع وتوقع الخطر .

ورث عن أبيه منصب الوالى لملكة مرسية ، كما ورث ضياعا كثيرة فى قشتالة وبلنسية ، وقد تزوج ثلاث مرات تعضيدا لبيته ونسبه ، وتكثيرا لذريته ، ولا ندرى هل كان يجمع بين هذه الزيجات ، أغلب الظن ذلك ، لأن التقاليد العربية المسلمة كانت تتسلل إلى هذه البيوتات فتأخذ سمتها ، ويبدو أن العصبية التى كنا نصادفها فى الحروب والصراعات ، لا نصادفها فى الحياة الاجتماعية أو الخاصة ، حتى إن ظاهرة التسرى كانت شائعة فى المجتمع المسيحى ، تزوج فى المرة الأولى بالأميرة دونيا إيزابل دى مايوركا ، وفى المرة الثانية دونيا كونستا نثا ابنة خايمى الثانى الأراغونى ، وفى المرة الثالثة دونيا بلانكا ابنة دون خوان نونييث دى لارا .

بدأ حياته العامة مشاركا فى الصراعات السياسية وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فشارك مع سانشو الرابع ، وحمل رسالته ، ثم شرع بعد ذلك يشايع أمراء وسادة آخرين ، فى صف دون ألفونسو دى لا ثيردا الذى بويع ملكا لقشتالة بمساندة ملك أراغون ، وحين انهزم هذان عاد دون خوان مانويل إلى طاعة فرناندو الرابع .

حين هلك فرناندو الرابع سنة ١٣١١ اعترف دون خوان مانويل بولاية العرش للأمير دون بدرو .

وكما كان ينتجع بولائه للأمراء المسيحيين ، كان يصنع

الصنيع نفسه مع المسلمين ، ويبدو أن العصر كان يمنح المشروعية لمثل هاته الأفعال ، فقد شارك مع أمراء المسيحيين فى المعركة التي شنها المسلمون على مملكة مرسية ، وصبغ سيفه بنجيع المسلمين الذين انهزموا .

وإذا كان قد صنع هذا فقد تخلى دون خوان عن قوميته - كما يقول مؤرخوه (٢) - ويبدو أن مسألة القومية هذه لم تكن بالوضوح الاصطلاحي الذى نعهده الآن حين نطلق مثل هذه التسميات إذ عرض دون خوان خدماته على ملك غرناطة ، محاربا معه ضد ملك قشتالة ، وقد أحرز نصرا يسيرا ، لم يلبث إلا قليلا حتى عاد الوضع إلى ما كان عليه قبلا ،

نصبه الفونسو الحادى عشر عضوا فى مستشاريته بقصد أن يجعله تحت عينيه ، وقد قاد دون خوان الطليعة المسيحية فى معركة سالادو سنة ١٣٤٠ ، دون أن يحتك بالمسلمين كما كان يخشى الملك فى تلك اللحظة ، فصحبه إلى موقع الجزيرة الخضراء ، وهو نفسه يعترف بتوزع ولائه فمرة مع ملك أراغون ، ومرة مع ملك غرناطة ومرة أخرى مع كليهما"(٣) .

توفى فى ١٣ من يونيو ١٣٤٨ ، ودفن فى دير الدومينكان فى بينيافيل ، الذى شيده قبل موته سنة ١٣١٨ ، وضاع رفاته لكن الذى ترجم له أفضل ترجمة بالإسبانية غومث سولير يشك فى هذا التاريخ ، ويرى أن دون خوان منذ بداية

سنة ١٣٤٨ كف عن النشاط والعمل ، وإن كان قد أقيم له حفل تكريم فى القلعة Al Cala فى ١٠ من مارس من هذا العام المذكور ، ولقب بلقب حاكم الثغر ، ويتابع مؤرخه أنه توفى فى أحد أيام إبريل أو مايو أو يونيو ، ويختلف أيضا مكان وفاته لكن مكان دفنه اتفقوا عليه (٦) .

وتولت الملك بقشتالة ابنته دونيا خوانا مانويل ، التى تزوجت دون إنريكى دى تراستامار ، ومع مرور الزمن تولى الملك أحد حفدته وتسمى باسمه .

تلك ملامح عامة لحياته المضطربة استقيناها من مظانها ، غير متلبثين كثيرا لدى الإغماضات التي صحبت بعض مراحل حياته ، لأنها ليست بسبيلنا ، ولأننا نهتم بالعلامات البارزة فى حياة ذلك الرجل الذى يعنينا أثره الأدبي قبل أن يعنينا نشاطه السياسي إلا بقدر ما يلقى ضوءا علي آثاره الأدبية .

ولعلنا نلاحظ أن هذه الحياة المصطخبة كان يحياها الناس فى المعسكرين المسلم والمسيحى علي السواء ، وأن الحياة العملية شئ أو السياسة إن شمنا الدقة والحياة الأدبية شئ أخر ، وخاصة إذا نظرنا إلي التقاليد المرعية والضوابط الأخلاقية والدينية التى يدعو إليها دون خوان فى كتاباته ، ونرى نقيضها في حياته العملية ، يقول خمينيث سولير :

"دون خوان مانويل من أولئك الرجال المتناقضين مع

ذواتهم ، ما بين كتاباته وعمله ، فهما خصمان تماما ، وله شخصيتان : واحدة يمارس بها الحياة ، وأخرى يفكر بها ويكتب ، وذكاءان : ذكاء عملي يتحرك ويحيا ، وذكاء يفكر به" (٤) .

لكننا نعتقد أن الأمور بهذه الصورة لا تصلح على إطلاقها لأن الفكر الذى يبشر به دون خوان مانويل إنما هو ذلك الفكر العملى ، الذى يكفل لمن يراعيه ويتمسك به الحياة الصالحة النافعة والمفيدة ، لا ذلك الفكر النظرى أو المثالى ، فالآداب التى تدعو إليها كتابات دون خوان إنما هى تلك الاداب الشوائع التى اصطلح الناس فى كل جيل وقبيل على أنها تفيد صاحبها ، وتكفل له النجاح ، وأنها "الحيل" - إن صح التعبير - التى يتحايل بها معتنقوها على إحراز كل منفعة قريبة أو أجلة ، ويتحرزون بها عن كل مخاطر الحماسة والاندفاع ، فالوجهان قريب من قريب ، لأن دون خون ليس المفكر المحض الحالم الذى يرسم يوتوبيا ، بل هو ذلك المفكر الذى يفكر لأن ترك التفكير مضر ، ومخل ، ولأن الحقل الذى يحرث فيه هو حقل الحكم الذوائع التى تخلب لب العمليين ، فإذا كان إبداع المرء صورة عقله وزمنه ، فهو الإبداع الذى ينسب إلى دون خوان مانويل وإلى زمنه ، وسوف نتناول هذا الأدب أو الإبداع بصورة خاصة في فقرة تالية .

وإذا كانت مؤلفاته تكاد تغطى المساحة الأخيرة من حياته ،

فإن ذلك يعنى أنه كتبها أوان استحصاد ملكاته ، وإبان النضج ، الذى يخول له أن يراجع تجاربه الماضية بعيدا عن الوهج والنور المبهر الذى يعشى الأعين أن ترى ، فهو قد فكر مليا بأخرة من عمره كما يفكر الكهول محتمين بتجاربهم الماضية ، وكان لنا أخيرا هذا الحصاد ، الذى يصح أن ينسب إليه ، لأنه يعلم جيدا كما يقول إن أفضل شئ بالنسبة للإنسان أن يتعلم ، وأن أفضل عمل هو تأليف الكتب لا اللعب ، وإزجاء الفراغ ، وقد كان ذلك الرجل الذى لم يضيع حياته ، فتعلم كل ما يمكن أن تصل إليه يده ، وهى طويلة ، تعلم الصيد فتى يافعا ؛ وتعلم اللغة اللاتينية ، وإن كان يشكو من تصريف الأفعال خاصة مع الضمير الثالث ، ولم يعن نفسه كثيرا بها ، لأنه يكتب بالرومانثية (٥) ، كما تعلم اللغة العربية .

وإذا كان مؤرخوه من الإسبان يشكون فى معرفته بالعربية ، فإن شواهد هذه المعرفة واضحة بذاتها فى معظم كتاباته ، فضلا عن أن العربية كانت لغة الثقافة الغالبة ، وإن كان أصحابها آنذاك فى حالة من الأفول ، إلا أن اللغة كانت تتسلل حتى إلى القصور الملكية المسيحية ، ولا يمكن أن تغفل أن عمه ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم أو العالم El Sa-bio ، كان بلاطه يتنفس هواء عربيا خالصا ، ولا يمكن لرجل طلعه مثل ابن أخيه أن يكون بمنجاة من هذا الهواء العربى

الخالص ، لكن يبدو أن اعتراف المؤرخين الإسبان بمعرفته العربية شئ فوق طاقاتهم ، مع أن بعضهم يذكر شيئا من الأصول العربية أمام بعض حكاياته ، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد الإعياء الباحث عن أصول غير عربية .

مؤلفاته :

تنوعت ملكات دون خوان ما بين شاعر ومؤرخ لأحداث عصره ، وقصاص بصورة أخص إذا فهمنا لقط القصاص فى إطار عصره لا بالمعني المحدث الآن ، وإلا نكون قد جنينا على دون خوان ، وعلى الفن القصصى فى الوقت ذاته .

فيما يتعلق به شاعرا فإن المؤرخين يذكرون له ديوانا هو Libro de las cantigas o de las cantares هذا الديوان لم يصلنا ، ولعله كان يتقيل فيه عمه فى "كنتيجات ألفونسو العاشر"(٧) ويفضل الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عدم ترجمة هذه الكلمة بل رسمها بحروف عربية هكذا ، وتعنى أغنية ، وتضاف إليها علامة الجمع «S» ، وهى أغان فى مديح السيدة العذراء ، لكن ذكر المؤرخين لهذا الديوان يؤكد نسبته إليه ، وإذا كان لم يصلنا هذا الديوان ، فإن ختام حكايات القونت لوقانور شعر ينبئ عن هذه الملكة المقتدرة ، وخاصة فى تلك القوافى الغنية فى كثير من الأبيات ، التى تذكرنا بلزوميات أبى العلاء ، بصرف النظر عن قيمتها الفنية شعرا ، ولذلك وصفتها بالملكة المقتدرة لا المطبوعة ، خاصة

وأن هذه الأبيات لا تحمل تجربة أدبية بل تحمل تجربة تأديبية إن صح هذا النعت ، فهى أشبه بالنصائح والإرشادات لكنها - مع هذا الاحتراز - تشى بأننا أمام قدرة فى ذرعها تصريف الكلام شعرا كما نصرفه نثرا ، والشعر بصفة خاصة فيه دالة واضحة على قدرة صاحبه وتمكنه من اللغة فى أدق إمكاناتها ، ونحن لا نحاكم تجربة دون خوان الشعرية بالمقاييس النقدية التى يعتنقها النقد الحديث ، بل نضعه فى إطار عصره وفى إطار هذه التجربة : تجربته هو .

فيما يتعلق بنثره فإن المؤرخين الإسبان يرون صاحبه أول كاتب قشتالى ، وإن كنا نرى ملحمة السيد - وترجمها ترجمة رائعة إلى العربية أستاذنا الدكتور الطاهر مكى - أول أثر يصلنا فى تلك اللغة ، إلا هؤلاء المؤرخين يقارنون بين الملحمة والقونت لوقانور ، بأن الأخيرة تقترب من تصوير الواقع الإسبانى بثرائه وتعقيدة ، وإن كانت الأولى تصف الواقع أيضا إلا أنه الواقع البطولى (٨) .

وتورد المراجع مؤلفات دون خوان ، مع شئ من التباين وهو أمر طبيعى فى عصور المخطوطات فى كل الأمم ، لكن أهمها :

كتاب الفروسية - كتاب الفارس وحامل الدرع - كتاب الصيد - كتاب الأغانى - كتاب الأسلحة - كتاب العلماء - كتاب العقوبات والنصائح - كتاب الأحوال - المدونة

التاريخية الكاملة - المدونة التاريخية الخاصة - وبالطبع كتاب القونت لوقانور .

إلى أخر هذه القائمة ، وربما تداخلت الموضوعات ، فيذكر عنوانان ، وهما كتاب واحد ، لكن الملاحظ أن الرجل مع انشغاله الشديد بأحداث عصره ، وتأثيره فيها إلا أنه لم يهمل الجانب العلمي ، ولعله كان يشايع تقليدا شائعا آنذاك كان عمه يمثله أوفى تمثيل ، ونلاحظ أيضا أن القونت لوقانور - وعليه مدار الحديث - انتهى منه أوان النضج والاستواء في أخريات حياته في سنة ١٣٤٢ ، كما نشيم أيضا من هذه القائمة أن الرجل كان متعدد المعارف ،وهى تمثله بشخصه وعصره ، فهو الفارس الذى يعنى بشئون الفروسية وآلات الحرب فيكتب فيها ، كما يهتم بأمور عصره وسياسته فيشارك فيها عمليا وعلميا ، فيدون المدونة التاريخية العامة ، كما يساهم فى الآداب العامة بالمعنى العام والخاص فيكتب كتاب الأحوال والقونت لوقانور وكتاب العلماء ، ولو أنه اقتصر فقط على الحياة العملية لغدا نسيا منسيا لا يذكره المؤرخون إلا فى إطار الأحداث السياسية ، لكن كتبه أضافت إليه وجها أخر ما كان فى وسعنا الوقوف عليه بدونها .

ويرى الفونسو إ سوتيلو أن أهم كتاباته هى كتاب الأحوال ، وكتاب القونت لوقانور ، لأنه وصل فيها إلى ذروة

الكتابة القصصية ، كما أنهما يعكسان فكره الاجتماعى والسياسى ، إذا كان كتابه الفارس وحامل الدرع يعكس خصائص المجتمع القشتالي فى عصره فضلا عن بعض الملامح الخاصة فى سيرة المؤلف باعتباره مشاركا وصانعا للأحداث .

ولا يعنينا بالطبع تقصى كتبه ومحتواها واحدا واحدا ، فهذا يخرج بنا عن الخطة المرسومة للحديث عن المؤلف وكتابه الذى نحن بصدده وهو القونت لوقانور .

كتاب القونت لوقانور :

كتاب القونت لوقانور أو عنوانه الآخر كتاب أمثال القونت لوقانور وباترونيو ، يمثل استحصاد ملكة دون خوان مانويل قصاصا ، وهو الكتاب الذى يذكر به مؤلفه قبل بقية كتبه ، وينعت بأنه أفضل أثر نثرى فى القرن الرابع عشر فى إسبانيا ، وهناك إشارات تدل على أنه كان مقروءا منذ أمد بعيد (١٠) ، وقد وصلتنا منه خمس مخطوطات ، وطبع سنة ١٥٧٥ .

يحتوى الكتاب على مقدمتين موجزتين ، وخمسة أقسام ، القسم الأول - وينشر أحيانا وحده - ويحوى إحدى وخمسين حكاية كما نفضل التسمية ، وهى حكايات ساذجة وبسيطة والقسم الثانى موجه إلى دون خايمى دى خيريكا ، وفيه مئة مثل ، بعضها أعقد من القسم الأول . والقسم الثالث فيه خمسون مثلا ، ويشبه القسم الثانى وإن كان أعقد بعض الشىء ، والقسم الرابع فيه ثلاثون مثلا أعسر من الأقسام الماضية أما القسم الخامس والأخير فبدا فيه وجه الناصح المؤدب المهتم بالخلاص بالمعنى الأخلاقى والمسيحى ، وإن كان هذا الوجه لم يختف مطلقا فى كل أجزاء الكتاب ، وإن كان بقدر ، لأن هذا الوجه دائما يحمله دون خوان مانويل فى كل ما سطرته يراعته .

يحمل هذا الكتاب رسالة أساسية هى التهذيب أو التربية

، وتمثل فى الأدب القشتالى فى العصر الوسيط رسالة مهمة يحملها النثر آنذاك أو الشعر أيضا ، والمؤلف فى ذلك بتقيل تقليدا راسخا فى الأذواق والأفكار ، فهو يقتفى رسالة ألفونسو العاشر الحكيم وإن كان بوجهه هو ، لأن عمه فى الأصل ليس مفترع هذا التقليد الأدبى ، بل هو أيضا مقتف لتقليد راسخ من قديم فى الآداب الإنسانية شرقية وغربية ، منذ حكايات أو خرافات إيسوب ، أو الحكايات العربية القديمة، أو كتب الأمثال ، أو مباهج الفلسفة ، أو الحكمة ، أو كليلة ودمنة ، أو التربية الأكليريكية لبدرو ألفونسو ، وهو يهودى من وشقة تعمد وصار يحمل اسم بدرو الذى وصل إلينا به ، وكان اسمه Rabi Moses Sefardi ، وقد كتب مؤلفه باللغة العربية أولا وترجمه بنفسه إلى اللاتينية ، فضلا عن الكتب التى تقفو هذه الطريقة باللغة العبرية كمقامات الحريزى ، وثمة حكايات أخرى تخرج عما ذكرناه ، وهى مستمدة من كتاب العقوبات والوثائق للملك دون سانشو وكذلك أعمال رامون لوليو ، إلى جانب الآداب الشفوية التى يتناقلها الناس دون أن يعرف صاحب محدد لها .

الغرض التعليمى نسيج أساسى فى هذا الكتاب ، والتعليم - عادة - يثقل على بعض الناس ، أو ينسى ومهمة المربى أو المعلم أن يجتذب إليه من يأنس فيهم همة ونشاطا للمعرفة ، وأن يزيح عنهم ملالة الدرس بما يقرب الغاية إليهم ، وينشط

ألبابهم ، وتلك مهمة التفت إليها إيسوب قبل الميلاد ، والتفت إليها الجاحظ فى الثقافة العربية ، ولذلك كثيرا ما نجد فى التراث العربى ما يقرن الفقه بالشعر ، وبالنادرة ، أو الأبدة الطريفة أو ما يسمى عند الفقهاء « الإحماض » ؛ لأن القلوب إذا كلت ملت أو عميت ، ومثل هذه الطريقة يبلغ بها الكاتب إلى أعماق المتلقى ، متسللا إليه دون أن يخاطبه من عل « فالخرافة الحق ترمى دائما إلى غرض واحد عظيم ، ذلك هو تجلية النزعات البشرية وترقية الخلق الإنسانى« ، دائبة على إخفاء غرضها التعليمى وراء الشخوص الممثلة ، ومن هذا نرى أن الخرافى الحق يضطلع بمهمة بالغة القيمة ، فما هو بالقاص ولا بالكاتب الرمزى ولكنه معلم عظيم مهذب للأخلاق آمر بالمعروف ، ناه عن المنكر » (١١) .

وهذا كلام دقيق ، لولا أنه - أى الخرافى - فيه يكمن القاص والكاتب الرمزى ، ولولا ذلك ما تخفى فى إطار القص والرمز وإن كانا ساذجين .

ولا نريد أن نحصر القونت لوقانور فى باب الخرافة فقط ، لأنها إحدى وسائله ، ولأن مادته شديدة التنوع ما بين تعاليم الدين ، والتاريخ القديم والحديث ، والواقع الإسبانى المعاصر له ، وهو يستخدم هذه المواد بلوذعية تشهد بأنه كاتب له مذاق خاص .

وكتابه - فى رأينا - يقفو كليلة ودمنة فى بناء الحكاية

القصصية ، ويمكن أن نطلق عليها « حكايات الإطار » « Elmarco » ، وهو البناء الأساسى فى كليلة ودمنة ، فهو واحد قلما يتغير ، « وإن كانت الحكايات فى كليلة ودمنة أشبه بالنسيج المعقد المتشابك الألوان والخيوط ، أو الرمز المكثف الشديد الثراء كالصورة الكلية فى البلاغة الحديثة ، على عكس القونت لوقانور ففيها بساطة واضحة وقصر أوضح ، أشبه ما يكون بالصورة الجزئية أو الاستعارة فى البلاغة القديمة .

تبدأ الحكايات كلها بسؤال يوجهه القونت لوقانور إلى ناصحه أو مستشاره باترونيو ، فيجيب الناصح سيده من خلال حكاية ، أو مثل يضربه ، كذلك تبدأ الحكايات فى كليلة ودمنة : أسئلة تدور بين الملك والفيلسوف ، والصيغة تكاد تكون واحدة فى الكتاب العربى والإسبانى سؤالا وجوابا ، ما عدا الحكايات الفرعية التى تشتق من الحكاية الأصلية - وهذا يعطيها مذاقا خاصا ، وقيمة أدبية عالية - فى كليلة ودمنة (١٢)

فمسألة الإطار هذه هى الجامع بين الكتابين ويفترقان فى مسائل أخرى ألمحنا إلى طرف منها فى هذا السياق ، وسوف نعود إلى مسألة المقارنة بينهما فيما بعد حين نتحدث عن التأثير والتأثر .

أما مسألة الأمثال نثرا فهى متناثرة فى كليلة ودمنة ،

وتأتى فى القونت لوقانور شعرا فى النهاية أو فى أقسام خاصة بالأمثال ، وكلها فى النهاية تهدف إلى تعليمنا لكى نظفر بما يسمى حديثا الكفاح من أجل الحياة وإن كان دون خوان لم ينس الحياة الآخرة ، إذ هو يحارب الخداع والكذب ، والباطل والغرور والغضب والكسل ، ويجاهد فى تلقيننا الثقة فى الله ، والامتثال لإرادته ، ويشرح كيف نعمل الأعمال الصالحة ، وكلها نصائح عملية موجهة لحل المشكلات التى يواجهها القونت لوقانور ، ونحن معه ، وفى حاجة إلى نصائح باترونيو الذى يثق فيه القونت ونثق فيه مثله ، وندرك معه أن هذه المشكلات إنما هى مشكلات واقعية تواجه الفرد منا ، ولذا نحن نتعاطف ، لا نقول على طريقة الرومانسية ، لأن الغرض التعليمى بعيد بعض الشىء عن هدف الأديب المعاصر ، وإن كان يبلغه بطريقة غير مباشرة ، لا كما هو الحال هنا مع دون خوان ، لأن الأدب ببساطة صدق تجربة وأداء جميل ، والتعليم صنعة ، وإن كان الأداء صنعة أيضا ، إلا أنها الصنعة المتوارية فى براعة الأداء ، لكننا لا نريد أن نحاكم دون خوان مانويل بالأحكام النقدية المعاصرة بعيدا عن إطار عصره ، فالتعليم الأدبى - ولنسمه بهذه الصورة - أو الأدب التعليمى - كان أمرا مقررا فى عصر دون خوان ، ولا يزال حين نقرأه يثير فينا الإعجاب به ، لأنه يلبى حاجة للروح الإنسانية لا نزال فى حاجة إلى إثارتها ،

وإن تعددت وسائل الإثارة ، فالكاتب القديم كان أقرب إلى الصراحة والخط المستقيم ، والكاتب المعاصر يرى أن الخط المستقيم ليس أقرب الطريق إلى الهدف ، بل إنه يرى أن الخط المتعرج أقرب وأجمل وأمتع ، لأن « المكر » الفنى لدى الكاتب المعاصر وسيلة وهدف فى الوقت ذاته .

والمحور العام لهذا الكتاب - رغم تعدد صوره - يدور حول الموضوعات التى يهتم بها المثقف فى العصر الوسيط ، ويرى L . de St'efano أن دون خوان مانويل يمثل فى أمانة وبجدارة فى كتابه هذا روح الإنسان فى ذلك العصر ، ويمثل كذلك الطبقة المحاربة التى تملك القدرة والثروة ، وهو ينتسب إلى تلك الطبقة الاجتماعية التى تحاول التمسك بروح الفروسية (١٣) .

وقد حدد المؤلف هدفه مباشرة حين قال : خلاص الروح الإنسانى ، والاستغلال الأمثل للأجساد ، والحفاظ على الشرف والأحوال . ولم يكن المؤلف مجرد كاتب أخلاقى منظر يهتم بالمبادىء الأخلاقية ، بل بالمبادىء الأخلاقية العملية .

أما البناء الفنى - مع هذا التجاوز فى المصطلح - فإنه يخضع لمسألة التعدد فى الموضوعات ، ولا يمكن أن نتوقع بناء فنيا متماسكا مع هذه الكثرة الموضوعية ، إلا إذا نظرنا إلى الإطار كما سبق أن أشرنا من قبل ، ولعل أهم بناء تحقق فى أقسام الكتاب كله هو ما تحقق فى القسم الأول منه ، لأن

الأقسام الأخرى فى مجملها أوابد ، وأمثال موجزة مكثفة لا يتحدث فيها عن البناء إلا إذا اعتبرنا ماجاء فى بداياتها هو المحور الذى يربط أقسام الكتاب بعضها ببعض ، وهذا ما يعبر عنها بأدنى ملابسة ، أو حسن التخلص من غرض إلى غرض .

يبدأ كل مثل أو حكاية بما هو مألوف فى كل الحكايات فى القسم الأول ، أن يطلب القونت لوقانور من مستشاره باترونيو نصيحة فيما يواجهه من مشكلة حيوية ، ولكن باترونيو لايوم الإجابة مباشرة بل يشرع فى حكاية مناظرة للحالة التى عليها القونت ، وهنا يثير لدى السائل شوقا إلى معرفة تلك الحالة ، ويتفاوت القص طولا وقصرا ، كما يتفاوت واقعا تاريخيا ، أو خرافيا ، وينمو هذا القص لنجد فى النهاية الإجابة التى ترضى القونت ويرى فيها حلا لمشكلته الواقعية أو المتخيلة ، وفيه الخلاصة الشافية ، وهنا يتدخل دون خوان مانويل الذى يرى أن الحكاية حسنة ومثمرة ، وأن العمل بها مفيد كما يرى القونت أيضا ، وعند ذلك يأمر بضمها إلى كتابه ، مشفوعة بشعر فى أغلب الأحيان أو بمثل شائع متواتر .

وهنا نرى أن ثمة نوعا من التماسك فى البناء ، وإن كنا نكاد نعرف سلفا أن كل النتائج طيبة ، وهذا مما يقلل من لذة الاكتشاف والمتعة التى يثيرها الإغماض الفنى فى كثير من

الأحيان ، لكن الرجل لم يشأ - كما هو الواقع فى عصره - ولم يستطع فى الوقت ذاته أن يتنكر لقدراته ، وليس فى وسعه هذا ، بل هو ابن وفى لعصره وبيئته وثقافته ، وهدفه من كتابه أولا وأخيرا ، وأنه لم يدع مطلقا ما نحاول نحن الآن أن نراه عنده ، لأن فى هذا ليا للحقائق التاريخية والفنية .

وحسبه - وهو الرجل الوفى لهذه الثقافة - أنه كما قال مينندث بلايو : « يضفى على قصصه طابعا شخصيا خالصا ويتعمق موضوعاته ، ويأتى دائما بابتكارات موفقة فيما يضيفه من التفاصيل ، وهو يصوغ كلامه فى أسلوب يبلغ من حيويته وجماله أن يصبح الموضوع الشائع بينه وبين غيره شيئا خاصا به ، يعبر عنه تعبيرا خاصا قائما على فهمه الشخصى لطبائع النفوس ، ومعرفته بما يلازم المعاملات من خلق ، وروحه الفكه المعتدل الذى لا يجرح الشعور ولا يتبذل »(١٤) .

وحسبه أيضا أن كل حكاية لها طابعها الخاص ، ولها إطارها التاريخى أو المتخيل ، ويتمتع بعبق خاص من الوصف الصحيح الصادق الذى يخرجها عن إطار التكرار والملالة ، وحسبه أن المصادر التى يدور فلكها إنما يطوعها لتلائم الجو القشتالى المسيحى الذى يحاول إضفاء طابعه عليه .

وربما يقف النقد الحديث مستغربا من تدخل دون خوان

مانويل فى أواخر حكاياته حين يرى المثل حسنا ويأمر بضمه إلى كتابه ، وأن هذا التدخل السافر يقلل من حياد القصاص أو الراوى ، ولكن هذا الاستغراب يزول حين نعلم أن دون خوان أيضا لا ينتزع من عصره وتقاليده الأدبية ، وأن هذا العصر لا يرى حرجا من هذا التدخل ، بل ربما يراه يزيد فى الإثارة والفن ، وترى ماريا روسا ليدا أن دون خوان يقتفى تقليدا قشتاليا فى هذا التدخل فى كتابه هذا وفى غيره من كتبه (١٥) ، وأن ختام الأمثال والحكايات بالشعر يدخل أيضا فى هذا الإطار لأن الشعر للمؤلف ، وهو - أى الشعر - تقليد راسخ فى الآداب كلها يطعم به التأليف النثرى، فيزيده بهاء وملاحة ، وهو هنا يلخص كل ما يدور فى الحكاية ، ليبقى أثره فى النفس التى تميل إلى الشعر وتحفظه أكثر من النثر

أصالة القونت لوقانور

« الليث عدة خراف مهضومة » كلمة قالها بول فاليرى وهى تصدق على الأعمال الأدبية الأصيلة صدقها على الليث نفسه ، ولعل فى هذه الكلمة ذاتها أخذا من الذى رد به جيتى على ما اتهم به من كثرة المؤثرات فى أدبه حين قال : « هذا مضحك فعلى هذا النحو يجوز لنا أن نسأل الرجل القوى عن الثيران والخنازير والغنم التى أكلها فأعطته القوة ، والصحيح أننا نولد وفينا كفاءاتنا ، وكلنا مدينون فى تكويننا لألوف المؤثرات التى تحتويها هذه الدنيا الواسعة التى نأخذ منها ما يوائمنا ويدخل فى قدرتنا ، وإننى لمدين بالكثير للإغريق والفرنسيين ، ومدين بما لا حد له لشكسبير وملتون وجولد سميث ، ولكنى إذا قلت هذا فليس معناه أننى أكشف عن ينابيع ثقافتى ، إذ هذا عمل لا آخر له ولا طائل تحته ، وكفى المرء أن يكون ذا نفس تحب الحق وتقبسه حيثما كان » (١٦)

والعبارتان واضحتان فى التعامل مع المؤثرات التى ينبغى أن توضع فى إطارها الصحيح فكرا وزمنا ، وكلتاهما دقيقتان فى جعل الخراف مهضومة ، والثيران والخنازير والغنم التى تعطى الرجل القوى القوة ، أى أنها تنصرف إلى إعطاء النسيج الخاص لليث وللرجل القوى ، ولا تكون غير

متمثلة ، وإلا تكون تورما على حساب الصحة والسلامة أو الهضم الذى يحيل المؤثرات إلى دم جديد .

وقد قلنا « إطارها الصحيح فكرا وزمنا » لكى نختبر مثل هذه الأفكار ، ونضعها فى زمنها الذى يمثل العصر الوسيط الذى كان لا يعترف كثيرا بما نعترف به الآن من أن « حقوق الطبع أو النسخ محفوظة للمؤلف » . وليس معنى ذلك أنها ضائعة ، أو أننا لا نعبأ بالحقوق هاته ، بل إننا نرى الأشياء فى إطارها الصحيح الذى نشأت فيه ، ولا نريد أن ندخل فيما يسمى الآن « التناص » لدراسة الظواهر المتشابهة بين القونت لوقانور وغيره من المصادر ، بل نريد أن نقول بوضوح ، ودون حماسة تدفع إليها نزعة عرقية إن القونت لوقانور عربى فى إطاره ، يقفو كليلة ودمنة فى هذا السياق ، وأن مسألة « الإطار » هذه يدين بها العرب أيضا للهند حسب أصل كليلة ودمنة وإن كانت عربيته واضحة ، لأن ابن المقفع في رأينا جعل المادة والإطار عربيا أو كاد .

وكليلة ودمنة لابد أن يكون قد وقع فى يد خوان مانويل ، ورآه حسنا - حسب ما يقول فى نهاية كل حكاياته - وأمر بضمه إلى كتابه ، كما يقول أيضا - مستعيرين عباراته - ضما إطاريا ، آخذا بعض الحكايات منه كما سوف نرى مثلا لهذا فيما بعد .

« والترجمة العربية هى التى حفظت هذا الكتاب ولولاها

لما نقل إلى السريانية واليونانية والفارسية والعبرية والإسبانية ، وقد ترجمه من العبرية إلى اللاتينية يوحنا دكابوا وجعل عنوانه « مرشد الحياة الإنسانية » .

Directorium Vitae humanae ، أما الترجمة الإسبانية فقد أمر بعملها ألفونسو العالم عندما كان أميرا عام ١٢٥١ م على الأرجح ، والترجمة اللاتينية التى قام بها خوان دكابوا والترجمة الإسبانية التى نشرها أليمانى (Alemany Balufor) عام ١٩١٥ هما أحسن ما يمثل نص عبد الله بن المقفع على الإطلاق » (١٧) .

ويرى أنخل جونثالث بالنثيا الذى رجعنا إليه فى الفقرة السالفة أن كليلة ودمنة لها أثر بعيد عميق فى الأدب الإسبانى كما يستدل من ترداد بعضها في كتاب العجائب لرايموندو لوليو وفى كتاب القونت لوقانور ، وفى كتاب القطط وكتاب الأمثال لسانشت دى فرثيال (١٨) .

وهما إذا كانا قد اتفقا فى الإطار إلى حد ما بالطبع ، - إذا نظرنا إلى ثراء كليلة ودمنة وتعقيده ، وإلى بساطة القونت لوقانور أو سذاجته فى القص - ، فإنما قد اتفقا فى الهدف أيضا ، وإن كان هذا الهدف بعيدا لدى كليلة ودمنة عنه فى القونت لوقانور ، كما أنه فى الوقت ذاته يشترك فيه كتاب آخرون عربا وأجانب كالجاحظ وابن قتيبة وغيرهما، ومثل بدرو ألفونسو ، وراموندو لوليو وغيرهما أيضا ، هذا الهدف

لخصه عرض كتاب كليلة ودمنة فى قوله : « وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا ، فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه ... ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه ، ينبغى له أن يعمل بما علم منه لينتفع به ، ويجعله مثالا لا يحيد عنه » (١٩)

وتكاد تكون الأهداف ذاتها لدى خوان مانويل فى القونت لوقانور لأنه كما يقول ؛ ألف هذا الكتاب بلغة جميلة كما استطاعها ، وجعله فى حكايات يفيد منها من يستمع إليها مقتفيا ما هو فيزيقى بالنسبة للجسم الإنسانى ، إذ يعطى ما هو حلو للكبد التى تميل إلى ما هو حلو كالسكر والعسل ، وأن يعطى كل عضو ما هو ملائم له » (٢٠)

وما هو حلو وما هو مر الجد واللهو الذى أشار إليه صاحب كليلة ودمنة ، وما يشير إليه التقليد العربى القديم« إن القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة » كما أن دون خوان مانويل ينبهنا إلى أن كل واحد يطيع ربه ، ويفعل كل أموره حسب حالته ، وكل واحد - بهذه الصورة - فى حاجة إلى طريقة فى البيان تلائمه ، وهذا ما صنعه دون خوان مانويل .

ولم يكن صاحب القونت لوقانور بدعا فى تأثره بما هو عربى أو إسلامى ، فإن الشائع المتواتر أن تكون الثقافة الغالبة وهى الثقافة العربية الإسلامية هى التى تتسلل إلى

الوجدان ، وتأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، وإذا كانت الأندلس هى همزة الوصل بين ما هو مسيحى وما هو إسلامى على حد تعبير ميننديث بيدال فى أحد عناوين كتبه الذائعة ، فإن هذه الثقافة تبدأ من البيت المالك ، حتى الشارع والسوق ، باعتبار الثقافة يصل إليها الأولون قبل الآخرين ، وإن كانت الثقافة الشعبية العربية هى الغذاء اليومى للطبقات الدنيا آنذاك ، وتتمثل فى الحكايات التى ترد فى المصنفات العربية و ترِدد طازجة على شفاه الناس ، دون أن يعلم مصدرها أو يعلم فالأمر سواء .

ومعلوم بالضرورة فى حالة دون خوان مانويل أنه ارتضع هذه الثقافة فى داره من قبل عمه ألفونسو العالم ، الذى ترجمت له مصنفات عربية لا يشك أحد فى أن ابن أخيه قد عرفها ، ولا يستطيع الأستاذ ألفونسو سوتيلو أن يتخيل إلا هذا ، فى مقدمته الجيدة للقونت لوقانور ، كما يشاركه هذا التخيل ماريا روساليدا ، التى ترى أن بعض حكايات القونت لوقانور لا توجد إلا فى التراث العربى ، لأنها ببساطة لا توجد فى التراث اللاتينى ، لكنهما وقفا فقط عند بعض الحكايات ولم يمتد بصرهما ليرى البناء الإطارى المتخذ فى كليلة ودمنة والذى اقتفاه دون خوان مانويل ، مع أن الكتاب العربى له أكثر من ترجمة فى الأدب اللاتينى والإسبانى فضلا عن الآداب الأخرى ، ودعك من الأصل العربى

فهما وغيرهما من أمثالهما ليسوا من المستشرقين العارفين بالعربية وفى ذرعهم العودة إلى المصدر الأصلى .

وإن كان بعضهم يرى أن العنصر الشخصى لدى دون خوان إنما يرجع إلى تقليد عربى قديم ، ويرى آخرون أننا لا يجب أن نبحث عن عنصر هنا أو هناك ، بل علينا أن نبحث عن الروح العربية El espirtu 'Arabe فى مصنفات دون خوان عامة دون توقف لدى الجزئيات ، ونحن متفقون مع وجهة النظر هذه ، وإن كنا نرى أن الجزئيات ذوات الأصل العربى تبين فيها هذه الروح أكثر مما تظهر فى حكايات أخرى بعيدة عن الأصل العربى ، وإن كنا نرى أيضا أن شخصية القونت لوقانور فيها أمشاج واضحة من دون خوان ، بل نكاد نعتقد أن دون خوان هو القونت لوقانور ، وأنه يتحدث بلسانه ، ويعرض المشكلات التى عاناها أو يمكن أن يعانيها ، وهذا مما يجعل لأصالة دون خوان مذاقا خاصا لا يضيع فى السكاك .

وربما كان من المناسب أن نعرض الآن لما لا يقبل المحاجة فى أن دون خوان مانويل كان يعرف العربية ، ونعتقد أنه كان يقرأ بها شأنه شأن المثقفين على أيامه ، كما يعرف الناس الآن اللغات الحية كالإنجليزية والفرنسية قراءة وكتابة كان يعرفها نطقا وفهما وسماعا ، هذا هو المظنون الذى نراه أحق بالقبول والاقتناع .

وإذا كان دون خوان لا يعرف العربية قراءة وكتابة فكيف

تسرب إليه هذا الأثر فى طريقة رسمه للحروف والجمل العربية ، ولست بمستطيع أن أدفع هذا الشعور الذى يملك على أقطار نفسى وأنا أقرأ كتابه القونت لوقانور ، فى أن طريقة التعبير نفسها وتركيب الجملة يكاد يكون عربيا ، خاصة إذا قرأنا كتابه فى طبعته القديمة (الرومانثية) بخلاف الطبعات الحديثة ، بصرف النظر عن رسم الحروف وتغييرها ما بين القديم والحديث كحرف H المعاصر الذى يكتب قديما F .

إذا صرفنا النظر عن كل هذا فإننا نلمس كما قلنا أن التركيب عربى ، وإن كان بحروف غير عربية .

لكن الذى لا مشاحة فيه أن فى كتابه جملا عربية صرفة ، ونعود فى هذا الصدد إلى البحث الذى كتبه Lamine Benallou الأستاذ المساعد فى جامعة وهران بالجزائر بعنوان : الجمل العربية فى القونت لوقانور لدون خوان مانويل : طرح ونقد ، وهو بحث مكتوب على الآلة الكاتبة ، ومقدم إلى معهد التعاون مع العالم العربى فى مدريد ، وقد تقصى فيه الباحث كل الطبعات القديمة والحديثة للقونت لوقانور فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية ، ورجع أيضا إلى البحوث التى قدمها إسبان وغير إسبان ، ووقف مليا لدى الخلافات الإملائية ، وتلك هى الجمل التى أوردها :

Vala nahar aten

ولا نهار الطين أو

Wala nahar at-tin

وهو رسم أقرب إلى النطق العربى .

٢- والجملة الثانية

Vahe de Ziat Alhaquim

وهذه زيادة الحكم أو

Wahadi Ziyadat Al . Hakam

وهى أقرب إلى النطق العربى .

٣- والجملة الثالثة

Ah ya ujte tafza min boq , boqe wama tafzas min fatr onque

آه يا أختى تفزعين من البقبقة وما تفزعين من حز عنقه.

وبالطبع هناك خلافات بين الطبعات فى طريقة الرسم لكنها تدل - مع مدى الخلاف وإن اتسع - على أن المؤلف كان يعرف العربية نطقًا وقراءة وكتابة ، غير عابئين بهذا الخلاف ، لأنه موجود بين الأقطار العربية حتى الآن ، وفرق واضح بين الخط الأندلسى والخط المشرقى يعرفه أهل تحقيق التراث والدارسون .

أما المضمون الذى وراء هذه الحكايات فله حديث آخر ، نشرع فيه الآن .

الأصول العربية لبعض هذه الحكايات اعترف به الدارسون من غير العرب فى إنصاف ، بعد أن أعياهم البحث فى

المصادر الكلاسيكية القديمة ، وفى الكتب المقدسة غير القرآن ولما لم يجدوا إلا الاعتراف بالأثر العربى فقد آمنوا ، وبعضهم على غير معرفة باللغة العربية ، فلا نطالبه أن يرى هذا الأثر وإن كان عليه أن يعود إلى أهل الاختصاص .

وسوف نضرب أمثلة فقط لا على سبيل الحصر والاستقصاء ؛ لأن هناك حكايات تطل برأسها العربى ، وإن كان دون خوان يمد بصره إلى غير العرب وهو أمر طبيعى لأن التقاليد التى ينهجها تقاليد قديمة قبل العرب ، وإن تزيت بالزى العربى فيما بعد لأنها من التراث الإنسانى العام مما يدخل فى خبرة الإنسان بعيدا عن الجنس واللغة .

وينبغى هنا أن نذكر الأثر الذى أحدثه الموريسكيون فى الثقافة القشتالية ، لأن هؤلاء ظلوا يؤثرون تأثيرا هائلا فى ذلك الأدب وفى البشر وفى اللغة وحتى فى التقاليد الدينية.

من أهم الحكايات التى توقف أمامها الباحثون الأوربيون ما جاء فى الحكاية العاشرة من القونت لوقانور وتحكى قصة رجل كان واسع الثراء قديما ، ثم برح به الفقر إلى درجة أنه لا يجد ما يطعم حاشا حبات من الترمس Altramuces ، يتذكر فى عوزه هذا ثرواته البائدة فيجهش بالدمع ، ولا يجد سلواه إلا حين يرى رجلا آخر كان أيضا واسع الثراء يلتقط قشر الترمس الذى يطرحه قيلتهمه .

حاول الباحثون الأوربيون أن يجدوا لها أصلا فى المواعظ

الكنسية ، وربما كانوا على حق في هذا لأن ثقافة دون خوان مانويل تأثرت إلى حد بعيد بثقافة الدومنيكان وبحثوا في تلك الوصايا التي تقول : لا تنظر إلى من هو أغني منك لئلا تحسده ، بل انظر إلى من هو أفقر منك ، واشكر الله على ذلك ، وبحثوا في أمثال العصر الوسيط وبعضها لكتاب مشهورين مثل القديس توماس الاكويني ، والتمسوا أيضا مصدرا شرقيا آخر هو حكاية الدرويش Derviche المترب الذي لا يستطيع شراء حذاء فيسعد بقسمته حين يرى في أحد مساجد الكوفة فقيرا هما مبتور القدمين .

لكن المستشرق المعروف الأستاذ فرناندو دي لاجرانخا درس المسألة في إنصاف محمود ، وناقش أولئك الباحثين ، ورأى أصلها العربي وتقصاه في المصادر الأندلسية ، وكيف أنه وصل إلى دون كالديرون دي لاباركا في مسرحيته "الحياة حلم" .

وجد الأستاذ جرانخا أن ما يحكيه ابن سعيد في المغرب نقلا عن ابن بشكوال ، فيما يقوله القنازعي القرطبي عن نفسه هو الأصل الذي نقل منه دون خوان مانويل ، وإن كان لم يحدد كيف وصل هذا النص إلى مؤلف القونت لوقانور ، ونحن من جانبنا نعتقد أن دون خوان كان يقرأ طرفا من هذه الكتب الأندلسية العربية أو كانت تقرأ له في البلاط ، أو وصلت إلى مسامعه - إن لم يكن قرأها - من أفواه الرواة

والإخباريين ، وإن كنا نميل إلى أن دون خوان قرأها نصا ، يدل على ذلك الميل هذا الاستقصاء ، وهذه العناصر الدقيقة فى الحكاية : إلى درجة أخذ كلمة الترمس كما هى بحروفها العربية كما ذكرنا آنفا . Altramuces

يقول القنازعى فيما يرويه عن نفسه : "كنت بمصر وشهدت العيد مع الناس ، فانصرفوا إلى ما أعدوه ، وانصرفت إلى النيل ، وليس معى ما أفطر عليه إلا شئ من بقية ترمس بقى معى فى خرقة ، فنزلت على الشط وجعلت آكله ، وأرمى بقشره إلى مكان منخفض تحتى ، وأقول فى نفسى : ترى إن كان اليوم فى مصر فى هذا العيد أسوأ حالا منى فلم يكن إلا ما رفعت رأسى ، وأبصرت أمامى ، فإذا برجل يلقط قشر الترمس الذى أطرحه ويأكله ، فعلمت أنه تنبيه من الله عز وجل وشكرته"

وعلى القارئ - غير مأمور - أن يرجع إلى الحكاية العاشرة فى هذا الكتاب ليرى كيف كان دون خوان مانويل يتنثر النظر إلى رواية القنازعى ، وإن كان ثمة تحوير طفيف ، إذ ليس فى الحكاية الإسبانية تلك الحكاية الذاتية كما رواها القنازعى ، يختفى فيها اسم البطل ، والوسط الجغرافى ، والبيئة الإسلامية ، لتكون قابلة أن تنسب إلى أى زمان ومكان ، وإن كان دون خوان أعطاها بعدا مأساويا ، لأنه يذكر أن ذلك الفقير كان واسع الثراء ولا يجد سوى

حبات الترمس الشديدة المرارة والسيئة المذاق ، وأن ذلك الذى يلقط قشر الترمس كان واسع الثراء أيضا ، وتختم الحكاية لديه ختاما مبهجا ، لأن ذلك الفقير تعزى حين رأى من هو أشد خصاصة منه ، وبه استطاع أن يجاهد لينسلخ من فقره ، وظفر بعون الله ، وعاد مرة أخرى إلى سالف غناه

والحكاية ذاتها فى المشهد العاشر من "الحياة حلم" لدون كالديرون وتقول ما يلى :

يحكون أن عالما
كان فقيرا بائسا
يلتقط العشب ويأكله
قال لنفسه : ترى من الذى يكون أسوأ منى حالا ؟
حين أدار رأسه
ألفى إجابة السؤال
ثمة عالم فقير
يلتقط العشب الذى يطرحه .

وفيه أيضا تشابهات بينه وبين حكاية الفنازعى ، فكلا الرجلين الفقيرين عالم : الفنازعى الفقيه Alfaqui والبطل العالم لدى كالديرون ، وإن كان لم يستطع أن يدس كلمة الترمس مكتفيا بالعشب الذى يمكن ولوجه بسهولة فى الشعر ، وثمة جملة يبدو أنها منحولة من النص العربى :

(وأقول فى نفسى) ترى إن كان أسوأ حالا منى

وترجمتها :

! Habra otro "entre si decia" m'as pobre y treste que yo ?

فرواية القنازعى صلحت مصدرا لكل من دون خوان مانويل ودون كالديرون دى لاباركا ، وإن كان كل واحد قد استطاع أن يجعل لحكايته جوا خاصا ، إلا أنها الخصوصية التى تذكر بالأصل الذى كان فيما يبدو شديد الذيوع فى إسبانيا الإسلامية والمسيحية على السواء ، وإن كان فى بطون المخطوطات . (٢١)

حكاية اللبانة أو حاملة الجرة إحدى الحكايات الذائعة فى الآداب العالمية ، ولعل أقدم هذه الحكايات ماورد فى خرافات إيسوب ، وهى تحمل رقم ١١٠ ، بعنوان « اللبانة والدلو » وتقول : كانت فلاحة تسير من المزرعة إلى البيت ، وهى تحمل على رأسها دلوا فيه لبن ، وبينما كانت تسير ، جعلت تفكر فى نفسها وتقول : إن النقود التى سيباع بها اللبن ، تكفى لشراء ثلاثمئة بيضة على الأقل ، وإذا فقس البيض خرج منه مائتان وخمسون فرخا على أقل تقدير ، وعندما تكبر الفراخ ، يكون سعر الدجاج قد ارتفع أو كاد ، فيكون عندى من النقود فى نهاية العام ، مع ما يتوافر لدى من الأجور الإضافية ما يكفى لشراء ثوب جديد ، وفى هذا الثوب أشهد حفلات الأعياد ، حيث يتنافس الشبان فى خطبتى ، ولكنى سأهز لهم رأسى ، وأرفضهم جميعا فى إباء .

وهزت رأسها عند ذلك ، فسقطت دلو اللبن على الأرض ،

وأريق ما فيها ، وذهبت أحلام الفتاة فى طرفة عين .

العاقل لا يتكلم بما لا يدرى أيكون أم لا يكون (٢٢)

هذا هو النص القديم لهذه الحكاية ، ولعل ترجمته عن الانجليزية تحمل رائحة العصرية بعض الشىء ، لكن النص مع هذه الملاحظة صريح الإبانة عن مغزى الحكاية ومضمونها ، إضافة إلى الحكمة المنتزعة فى آخرها ، وإن كانت الحكاية فيها شىء من السذاجة والتواضع فى الحبكة كما يقولون ، والبطلة فلاحة آنسة ترغب فى الزواج .

الصورة القديمة لهذه الحكاية موجودة أيضا فى كليلة ودمنة ، ونقول : زعموا أن ناسكا كان يجرى عليه من بيت رجل تاجر فى كل يوم رزق من السمن والعسل ، وكان يأكل منه قوته وحاجته ، ويرفع الباقى ، ويجعله فى جرة ، فيعلقها فى وتد فى ناحية البيت حتى امتلأت ، فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره ، والعكاز فى يده ، والجرة معلقة على رأسه ، تفكر فى غلاء السمن والعسل ، فقال سأبيع ما فى هذه الجرة بدينار ، وأشترى به عشرة أعنز ، فيحبلن ويلدن فى كل خمسة أشهر بطنا ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تصير غنما كثيرة ، إذا ولدت أولادها ، ثم حرر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمئة عنز ، فقال : أنا أشترى بها مائة من البقر ، بكل أربعة أعنز ثورا أو بقرة ، وأشترى أرضا وبذرا وأستأجر أكرة وأزرع على الثيران ، وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها فلا يأتى على خمس

سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالا كثيرا ، فأبني بيتا فاخرا وأشترى إماء وعبيدا ، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن ، ثم تأتى بغلام سرى نجيب فأختار له أحسن الأسماء ، فإذا ترعرع أدبته ، وأحسنت تأديبه ، وأشدد عليه فى ذلك ، فإن يقبل منى ، وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها فسال ما كان فيها على وجهه ، وإنما ضربت لك هذا المثل لكى لا تعجل بذكر ما لا ينبغى ذكره ، وما لا تدرى أيصح أم لا يصح . (٢٣)

هذه أحلام النساك التى ينبغى أن تتواضع ، أو نتوقع لها هذا ، إلا أنها مغرقة ، شديدة النزع ، يتزوج الناسك امرأة جميلة ذات حسن وتأتى بغلام سرى ، وهى الرغبة المكبوتة فى قرار الناسك ، لا أنه أدار ظهره للدنيا ، فأحلامه هنا غير متواضعة ، وفيها هذا التسلسل المغرق ، واللبن هناك أض سمنا وعسلا ، وهنالك امرأة وهنا رجل ، والختام يكاد يكون واحدا .

وتتغير الحكاية بعض الشىء حين تصل إلى ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، تقول ما يلى : وفى كتاب للهند - ومعلوم أنه كليلة ودمنة - أن ناسكا كانت له جرة بسمن فعلقها على سريره ، ففكر يوما وهو مضطجع على السرير وبيده عكاز فقال : أبيع الجرة بعشرة دراهم ، فأشترى بها خمسة أعنز ، فيلدن فى كل سنة مرتين ، حتى تبلغ ثمانين فأبيعها وأشترى بكل عشرة بقرة ، ثم يضحى المال بيدى ، فأشترى

العبيد والإماء ويولد لى ولد فأؤدبه ، فإن عصانى ضربته بهذه العصا ، وأشار بالعصا ، فأصاب الجرة ، فتكسرت ، وانصب السمن على رأسه » . (٢٤)

الحكاية هنا موجزة ، نقلها صاحب العقد - بلا ريب - عن كليلة ودمنة ، وتصرف فيها ، ونقلها عنه بالتالى ابن عاصم الغرناطى فى حدائقه ، بنفس هذا الإيجاز ، وإن كان لم يصرح بنقله عن العقد ، لكن العقد مصدر أساسى للحدائق كما درسنا ذلك فى تحقيقنا وتقديمنا لحدائق الأزاهر ، ومعلوم أيضا أن ابن عاصم متأخر عن دون خوان مانويل .

أما حكاية القونت لوقانور - وهى السابعة - بعنوان « ما حدث لدونيا تروخانا » فإنها أفادت من كل هذه المصادر مجتمعة ، وإن كنا نعتقد أن خرافات إيسوب قد نظر فيها دون خوان مليا ؛ نظرا لتوحد اللبن ، وإغراقها فى الخيال وهو ما يناسب إغراق خيال كليلة ودمنة لدى الناسك واتفق إيسوب ودون خوان فى جعل البطلة امرأة ، وإن كانت مسماة لدى دون خوان ، منكرة فى إيسوب ، وختمت بهذا المثل - ترجمناه شعرا - يقول :

ثق فى الحقيقة دائما واعدل عن الأوهام.

وإن كانت قد بدئت بحكمة ، تشى بما سوف تسفر عنه الحكاية ، تقول هذه الحكمة : إن من الحصافة أن نرتبط بالواقع وليس بالخيال .

وتقترب حكاية القونت لوقانور من كليلة ودمنة فلا

سؤال القونت : وكيف كان ذلك ؟ ، وهو سؤال يتردد فى كل الأمثال أوالحكايات .

كما أن الحكاية فى كل مصادرها أصبحت من الأدب الشعبى المتداول لدى كافة الأمم ، وإن كنا نحاول رؤية السبق التاريخى ، ونحاول أيضا أن نرى التشابه أو الخلاف بين كل حكاية وأخرى ، ونعتقد أن دون خوان قد أسبغ على حكايته نوعا من التعريف أو التخصيص حين يسمى المرأة باسم محدد ، وهى فى المصادر القديمة أو التالية مجرد نكرة - فلاحة - ناسك ، كما نعتقد أن دون خوان مزج كل ما سبق فى مزيج خاص ، واصطنع له سياقا وجوا .

حكاية الأب والابن والحمار من الحكايات الذوائع فى الآداب الإنسانية ، لعل أقدم رواية لها ما جاء فى خرافات إيسوب بعنوان « الطحان وابنه وحماره » تقول :

« ساق طحان وابنه حمارهما إلى سوق قريبة ليبيعاه ، فلم يجاوزا غير قليل ، حتى مرا بنسوة حول بئر ، يتحدثن ويضحكن ، فصاحت إحداهن : أرأيتن عمركن كهذين الأحمقين يمشيان ومعهما حمارهما ؟ فلم يكد الرجل يسمع قولها حتى أركب ابنه على الحمار ، وسار بجنبه مسرورا .

وما هى الإبرهة حتى مرا بقوم بينهم نقاش وجدل ، فقال أحدهم : انظروا ! فهذا دليل على ما كنت أقوله لكم ، أى احترام للسن فى هذه الأيام ؟ ألم تروا إلى ذلك الغلام الكسلان ، يركب فيضطر أبوه الشيخ أن يمشى : انزل أيها

الولد القليل الحياء ، ودع الشيخ يركب ، فيريح جسمه المتعب ، فلماسمع الشيخ انتقادهم أنزل الولد من على الحمار وركب هو .

ولم يجاوزا مكانهما إلا قليلا حتى مرا بجماعة من النسوة والأطفال ، فانطلقت ألسنتهن حين أبصرنه ، وقلن : عجبا لك أيها الشيخ القاسى ، تركب على الدابة ، والصبى المسكين لا يستطيع أن يسايرك بخطوه على الأرض ؟ فأسرع الطحان الطيب وأردف ابنه خلفه .

وكان قد قربا من المدينة ، فلقيهما رجل من أهلها وقال : خبرنى أيها الصديق الطيب ، أهذا الحمار حمارك ؟ قال الشيخ : نعم ، قال الرجل : ما كنت أحسب ذلك مما تكلفه من المشقة ، أحرى بكما أن تحملا الدابة المسكين ، لا أن تحملكما هى ، قال الشيخ : حقا لقد قسونا على هذا الحمار فلنحاول أن نريحه .

ثم ترجل هو وابنه ، وشدا بعض قوائم الحمار إلى بعض ، وحاولا أن يحملاه على كتفيهما بنبوت قوى ، ويعبرا به قنطرة عند باب المدينة ، واسترعى ذلك المنظر العجيب انتباه الناس ، فأقبلوا زرافات ووحدانا يضحكون منه ، وضاق الحمار بضجيجهم ، كما ضاق بطريقة حملهما إياه ، فما زال يقلقل الرباط فى يديه ورجليه حتى حله ، وسقط من النبوت إلى النهر . فحزن الرجل فى نفسه ، وخجل من الناس ، وعاد إلى بيته من فوره وهو يقول : إن الإنسان لا

يمكنه أن يرضى جميع الناس .

إرضاء جميع الناس غاية لا تنال . (٢٥)

هذه النادرة أو الحكاية تروى عن جحا ، وتقول ما يلى : كان لجحا ولد يعصيه كلما أمره بعمل ، ويقول لأبيه : « وماذا يقول الناس عنا إن عملناه ؟ »

وأراد جحا أن يلقنه درسا ينفعه ، ويعلمه أن رضى الناس غاية لا تدرك ، فركب حماره وأمر ابنه أن يتبعه ، ولم يمض غير خطوات حتى مر ببعض النسوة فشتمنه وقلن له : « أيها الرجل ، أما فى قلبك رحمة ؟ تركب أنت وتدع الصبى الضعيف يعدو وراءك ؟ » .

فنزل جحا عن الحمار وأمر ابنه بركوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ثم مر بجماعة من الشيوخ يستشرفون ، فدق أحدهم كفا بكف ، ولفتهم إلى هذا الرجل الأحمق وهو يقول ويعيد : لمثل هذا فسد الأبناء وتعلموا عقوق الآباء ، أيها الرجل تمشى وأنت شيخ ، وتدع الدابة لهذا الولد ، وتطمع بعد ذلك أن تعلمه الأدب والحياء ؟.

قال جحا لولده : أسمعت ؟ تعال إذن نركب الحمار معا .

وما هى إلا لحظة ، حتى مر بهما جماعة من أصدقاء الحيوان صاحوا بهما : أما تتقيان الله فى هذا الحيوان الهزيل ؟ أتركبانه معا ، وكل منكما يزن من اللحم والشحم ما يزيد على وزن الحمار ؟

قال جحا لولده : الآن نمشى معا ونرسل الحمار أمامنا ،

وماهى إلا لحظة أخرى حتى مر بهما طائفة من الخبثاء ، فجعلوا يعبثون بهما ويقولون لهما : والله ما يحق لهذا الحمار إلا أن يركبكما أو تحملاه وتريحاه من وعثاء الطريق .

فمال جحا إلى شجرة ، وأخذ منها فرعا متينا وربط فيه الحمار ، وحمل الفرع من طرف ووضع الطرف الآخر على كتف ولده ، فإذا بالبلد كله وراء هذا الركب العجيب ، وإذا بالشرطى يفض هذا الزحام ليسوقهما إلى البيمارستان .

قال جحا لابنه فى طريقهما مع الشرطى : هذه يا بنى عاقبة من يستمع إلى القال والقيل ، ولا يعمل عملا إلا ابتغى به مرضاة الناس . (٢٦)

أما حكاية القونت لوقانور فهى تروى ما حدث لفلاح شريف مع ولده ، الحاد الذكاء ، القليل التجربة ، وهذا يضيف بعدا خاصا لهذه الحكاية ، وقد أراد الأب أن يلقنه درسا عمليا ، لا يستطيع أمامه المحاجة والجدال ، إلا أن حكاية إيسوب وجحا أكثر ملحا وإغراقا فى الفكاهة ، حين يحمل البطلان الحمار معا فى آخر المطاف ، وتعرى حكاية دون خوان مانويل من هذه الخاتمة ، وإن استعاضت عنها بالحوار الحى ، ورسم البيئة المحيطة ، رغم أنها اقتصرت على الرجال فقط .

وهذا الخلاف اليسير من محض عمل دون خوان ، لأن الحكايتين القديمتين تعريان من مثله ، وبالطبع يمكن الاطمئنان إلى أن مؤلفنا استطاع أن يفيد من كلتا الحكايتين

وأن يوظف المغزى فيهما مع تحوير خاص ، وإن كنا نميل إلى أنه وقف على هذه الحكاية من نوادر جحا ولها شهرة ذائعة في كل البلدان ، ومارست تأثيرها غير المنكور في الأدب الإسباني في العصور الوسطى (٢٧) .

نقول بهذا الاحتمال لأن التراث الكلاسيكي - وتمثله حكايات إيسوب - كان محدود القيمة عند نصارى الأندلس كما يقول أميركو كاسترو . (٢٨) ، بخلاف الآداب الشعبية العربية التي كانت تتسلل عبر مسالك كثيرة ، وتمارس يوميا في الشارع والسوق .

ثمة حكاية أخرى ذات نزعة تهذيبية واضحة ، ولعلها مما كان يحكى على ألسنة الناس ، وهي كثيرة الورود في كتب النوادر والحكايات مما يقدم بطريقة رمزية إلى السلاطين والملوك الذين يركبون رءوسهم ، وتخشى بطانتهم أن تعظهم أو تقدم لهم النصيحة سافرة ، خشية بطشهم ، فيلبسون النصيحة ثوب الرمز وتصل إليهم محققة أهدافها .

« ويضربون المثل لهذا النوع من القصص بأن وزيرا عاقلا أراد أن يقدم النصح لمولاه مستترا ، فقص عليه ، قال : إن بومة في البصرة أرادت أن تزوج ابنها من بومة في الموصل ، فوافقت هذه ، ولكنها اشترطت على البومة الأولى أن يكون المهر مائة قرية خراب ، فأجابتها بومة البصرة : لاأستطيع أن أفعل ذلك الآن ، ولكن إذا أبقى الله السلطان عاما آخر

قدمت لك هذا المهر وزيادة ، وسمع السلطان القصة ، وتأثر بها ، وأمر بأن تعمر المدن والقرى الخربة ، ودرس واقع بلاده ، ليجعل حياة مواطنيه أقل عذابا » . (٢٩)

لدى القونت لوقانور حكاية كهذه إلا أنها تقدم بين يديها نفس الحوار بين باترونيو والقونت لوقانور ، وكيف قص المستشار حكاية ابن أحد الملوك ، وهو فى دور اليفاعة والغرارة ، أحاط به رفقاء السوء ، ولم يستطع الحكيم مجابهته ، ولم تفلح نصائحه ، فأشاع أنه يعرف منطق الطير وسرى النبأ إلى مسامع الأمير ، حتى سمع غرابين ينعبان ، وفى حركة مسرحية يمزق الحكيم ملابسه ، ويثير ذلك جزع الأمير وفضوله فيترجم له الحكيم كلام الغرابين ، وهو أن الخراب قادم وسيقام العرس ما دام الأمير يلى الحكم بهذه الصورة السيئة .

الغراب والبومة صنوان تقريبا فى الذوق الشعبى الشائع وهو أنهما نذيرا شؤم ، بصرف النظر عن الحقيقة والواقع ، وقد استخدمت الحكاية العربية البومة ، والإسبانية استخدمت الغراب وخلصت كلتاهما إلى الهدف المرجو من النصح المغلف بالثوب الحريرى ، الذى لا يزعج مسامع الأمراء إلا بقدر يسير ، ثم يهرعون إلى الامتثال إلى هذا النصح .

ولم أر فى المصادر الكلاسيكية مثل هذه القصة ، ولكنها

فى العربية من الحكايات الشوائع ، قرأناها فى أكثر من مصدر قديم ، لكن هذه المصادر ندت الآن عن الذاكرة فاكتفيت بالرجوع إلى كتاب الدكتور الطاهر مكى ، وهو ناقل لها من المصادر القديمة ، ويمكن لهذه الحكايات أن يكون دون خوان قد قرأها فى مظانها العربية أو ترجمت إلى الرومانثية وقرأها وأفاد منها ، والحق أنه جعل لها قواما حكائيا تعرى منه نظيرتها العربية ، لأنها خلصت إلى الهدف مباشرة فى تكثيف وإيجاز خليقين ومعهودين فى الحكايات العربية .

أما حكاية الغربان والبوم والصراع الطبيعى بينهما ، فله صفحة باقية فى كليلة ودمنة ، إلا أنها صفحة شديدة التعقيد لما يداخلها من حكايات فرعية كثيرة ومطولة ، فقد جاء فى كليلة ودمنة باب خاص هو « باب البوم والغربان » ، وسنحاول هنا أن نأخذ بعض نتف من هذه الحكاية المتشعبة :

زعموا أنه كان فى جبل من الجبال شجرة من شجر الدوح ، فيها وكر ألف غراب ، وعليهن وال من أنفسهن ، وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بومة وعليهن وال منهن ، فخرج ملك البوم لبعض غدواته وروحاته ، وفى نفسه العداوة لملك الغربان ، وفى نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم ، فأغار ملك البوم فى أصحابه على الغربان فى أوكارها فقتل وسبى منها خلقا كثيرا ، وكانت الغارة ليلا . . . .

واجتمع الغربان وتداولوا الرأى فيما بينهم ، وأدلى

بالمشورة خمسة غربان معترف لهن بحسن الرأى ، وقال كل واحد رأيه ما بين مستسلم ومقاوم ، وتتداخل الحوادث والقصص ، حتى يقتنع الجميع بصواب رأى أحدهم ، وذهب إلى البوم ، اللتى تداولت الأمر والمشورة بشأنه - وهو مخادع لهن - وفى النهاية استطاع أن يشعل النار فى أنقاب البوم . (٣٠)

وقد حدث لدى دون خوان شيء مشابه لهذا الذى فى كليلة ودمنة ، سوى الحرق الذى تمثل فى المصدر العربى والقتل والإبادة الذى تم فى المصدر الإسبانى ، لكن المصدر العربى أوفى وأشد تكثيفا وتعقيدا وفنا أيضا من السذاجة الناضحة فى الكونت لوقانور ، وهو لم يزعم سوى هذا وأرانا أميل إلى تلك « الحبكة الدرامية » إن صح التعبير التى نصادفها فى كليلة ودمنة . ولا ريب لدينا فى أن دون خوان نقل هذه الحكاية حرفيا من ابن المقفع وكل ما حدث من تحوير إنما لا يجاوز الخط الأساسى فيها .

للثعلب والغراب أيضا صفحة فى خرافات إيسوب وتقول ما يلى : خطف غراب قطعة لحم وطار بها إلى غصن شجرة ، ممسكا بها فى منقاره ، فرآها ثعلب ، واحتال ليأخذ منه قطعة اللحم ، فقال : لك ما أحلاك أيها الغراب ، ما أبهى طلعتك ، ليت صوتك يعدل جمالك إذن لكنت ملك الطيور غير مدافع ، فاغتر الغراب بذلك الثناء الكاذب ، وأراد أن

يبين للثعلب أن صوته جميل ، فأخذ ينعق ويصيح ، فسقطت قطعة اللحم من فمه ، فأسرع الثعلب والتقطها ، وقال للغراب : أيها الغراب الأحمق ، إن صوتك لا عيب فيه ولكن العيب كل العيب فى فطنتك » (٢١)

تحول اللحم فى خرافة إيسوب إلى قطعة جبن لدى خوان مانويل وتأخذ المداهنة والنفاق طريقا لا حبا لدى الحكاية الإسبانية إذ تتغزل كثيرا فى جمال الغراب وكمالاته ، وقدراته فى الطيران ، وجمال عينيه وأظفاره ومنقاره إلى آخر هذه القصيدة الغزلية التى دبجتها الثعلبة - وهى هنا مؤنثة على عكس إيسوب - وحاولت الثعلبة أن يغنى الغراب فاندفع يغنى فسقط الجبن ، ولم تسبه الثعلبة ولم ترمه بالحمق والفهاهة ، بل اكتفت بما ظفرت ، وكان ختام الحكاية الإسبانية هذا الشعر الجيد :

احذر من أن ينزعك ما فيك
من يمدحك بما ليس فيك

أما الأسد والثور فله حكاية ذائعة ومطولة فى كليلة ودمنة وهو باب خاص بالأسد والثور ، تتداخل فيه الحكايات وتتشاعب ، ويلخصها قول دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : اضرب لى مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء ، قال بيدبا : إذا ابتلى المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال لم يلبثا أن

يتقاطعا ويتدابرا ، وتتداخل الإفسادات بين الثور والأسد ، فقتل الثانى الأول ، وندم بعد ذلك حين تبين له وجه الرأى (٣٢)

لكن دون خوان حور الحكاية كثيرا ولخصها أكثر ، نائيا عن التداخلات والحكايات الفرعية ، واختلف مع المصدر الأصلى فى أن كلا من الأسد والثور بعد أن دب بينهما الشقاق تناحرا وتقاتلا لكنهما بقيا هزيلين لم يقتل أحدهما الآخر ، وخضعا بهذا الهزال لمن كانوا يخضعون لهما ، وكأن دون خوان يؤدى رسالة إلى ملوك عصره فى هذه الصورة الخرافية حين كان ملوك النصارى - شأنهم فى ذلك شأن ملوك المسلمين فى الأندلس - يتقاتلون فيما بينهم ويهزل قدرهم وقوتهم لدى أعدائهم الحقيقيين ، وهذا التحوير الذى صنعه دون خوان يؤدى هذا المراد أوفى أداء .

اختبار الأب لأبنائه الثلاثة متواتر فى الآداب الإنسانية وكل أمة تضع فيه خلاصة تجربتها وخبرتها ، والأمر التقليدى أيضا أن الأخوين الكبيرين اللذين ينبغى أن ينجحا فى الاختبار يخفقان فيه ، بينما يفلح الابن الأصغر ، هذا هو المراد أو المضمون ، وكل أديب يملأ هذا المضمون بما يمليه عليه إبداعه وطريقته ، وربما كان ما يلخصه كليلة ودمنة هو الموحى إلى دون خوان بحكايته الرابعة والعشرين جاء فى باب عرض الكتاب «وقد ينبغي للناظر فى كتابنا

هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه بل يشرف على ما يتضمن من الأفعال حتى ينتهى منه ، ويقف عند كل مثل وكلمة ويعمل فيها رويته ، ويكون مثل أصغر الإخوة الثلاثة الذين خلف لهم أبوهم المال الكثير ، فتنازعوه بينهم ، فأما الكبيران فإنهما أسرعا فى إتلافه وإنفاقه فى غير وجهه ، وأن الصغير فإنه عندما نظر ما صار إليه أخواه من إسرافهما وتخليهما من المال أقبل على نفسه يشاورها ، وقال : يا نفسى إنما المال يطلبه صاحبه ويجمعه من كل وجه لبقاء حاله وصلاح معاشه ودنياه وشرف منزلته فى أعين الناس ، واستغنائه عما فى أيديهم وصرفه فى وجهه . (٣٣)

وحكاية القونت لوقانور لا تخرج عن مثل هذه النصائح الحسنة التى تبرز حصافة الابن الأصغر ، وكأنها تقول مترجمة عن الحكمة العربية القديمة « إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه » ، وليس الأمر راجعا إلى استعلاء السن ، وهذا ما حدث للملك الذى أراد أن يختبر أولاده الثلاثة فأخفق الكبيران بينما أفلح الصغير ، وصار قرة عين أبيه ، وغدا ولى عهده ، وكل هذا جاء بعد سلسلة من الاختبارات لكل واحد من الثلاثة ، فى ثوب حكائى ، يستعد كل واحد منهم - حسب فكره وطاقاته - للخروج مع الوالد ، إلا أن الكبيرين لم تكن فيهما تلك اللوذعية التى برزت فى الابن الأصغر ، وبها استحق المكافأة .

دلالة المرأة ، وجحودها لنعمة الرجل وفضله مع أول بادرة خلاف موضوع خالد خلود الأنثى ، إلا أن وضعه فى إطار حكائى واقعى أو متخيل هو ما يجعل لهذا المضمون ثوبا أدبيا عاليا وجميلا ، وهذا ماحدث للمعتمد مع زوجته الرميكية ، وعبر عنه شعرا ، ربما كان المصدر لما تداوله الناس من أخباره فى الجانب الإسلامى والمسيحى على السواء ، وشخصية المعتمد وما حدث له ، شخصية مأساوية تثير فضول الناس ، وتدفعهم إلى انتحاله بعض الأشياء ، ولا تعنينا هنا هذه الانتحالات - إن صحت - بل يعنينا أن هناك حكايات نسجت واقعا أو خيالا تشبع رغبات الناس وتثير شهيتهم لسماعها ، يقول المعتمد :

فى ما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا .(٣٤)

هذه الإشارة فى البيت الأخير ربما جعلت القصاص يشحذون أخيلتهم فى نسج القصة الذائعة التى تقول إنه

ون أخيلتهم في نسج القصة الذائعة التي تقول إنه صنع للرميكية بركة من مسك وكافور وجعلها هي وجواريها يطأن فيها إشباعا لرغبتها أن تدوس في الطين كما يصنع الناس من الطبقات الدنيا ، وحين بطرت في أحد الأيام قال لها هذه العبارة التي نقلها دون خوان « ولا نهار الطين » ، وقد ذيل صاحب القونت لوقانور حكاية المعتمد بحكاية أخرى هي رغبة الرميكية في رؤية الثلج بقرطبة ومن شأنها ألا تثلج ، فزرع لها أشجار اللوز ، وحين تزهر في فبراير تبدو مكللة بالبياض كالجليد ، وتنسب هذه الحكاية إلى عبد الرحمن الناصر مع الزهراء حظيته التي بنى لها مدينة باسمها ، والحكاية به أشبه ، لأن معظم إقامة المعتمد كانت في أشبيلية ، والناصر كان في قرطبة ، وقد استغل هذه الحكاية كاتب قرطبي معاصر هو أنطونيو جالا في مسرحيته عن الزهراء (٣٥)

والمعتمد عموما مصدر لأعمال أدبية كثيرة في العربية والإسبانية وحكاياته تنسب إلى غير واحد من الملوك المشارقة ، إذ تنسب إلى ابن طولون أو خمارويه ، وتنسب أيضا إلى بعض أميرات البيت العباسي في بغداد وخاصة حكاية الطين وبحيّرة الزئبق ، وغير ذلك مما هو في كتب ألف ليلة وليلة ، وكتب التراث عموما .

وتمتلىء حكاية المعتمد لدى دون خوان ببعض الكلمات من

أصل عربى كالطوب والعنبر والغالية والطين وغير ذلك ، وكلها تشهد أن هذه الألفاظ كانت متداولة بين الناس وإلا ما جرؤ المؤلف أن يوشع بها كتابه ، كما تدل أيضا على معرفة وثيقة بهذه اللغة ، وبهذه الحكايات التى تتجاوز التخوم ، ويختلط فيها التاريخ بالخيال .

ومن قبيل هذه الحكايات العربية حكاية الزيادة الحاكمية فى مسجد قرطبة ، ونسبة الناس إلى الحكم زيادة فى البوق ، ورسمها المؤلف بالنطق العربى فى حروف لاتينية ، وتصويره للحكم بحبه للطعام والراحة والعيش بين الملذات ، وتلك هى الصورة المتخيلة لملوك المسلمين عموما ، حفدة هارون الرشيد فى غير الواقع ، بل بصورة ألف ليلة وليلة وبصورة الخيال الشعبى عموما ، مع أن الواقع يناقض هذه الصورة تماما ، فالحكم هذا كان من كبار حكام الأندلس ، وهو صاحب المكتبة الضخمة الشهيرة التى تحدثت عنها المصادر العربية والأجنبية حديث الإعجاب والانبهار ، لكن الملح الذى يطلبه الذوق الشعبى يجعله يزيد فى البوق ثقبا ، مع أن الزيادة التى تنسب إليه حقا هى زيادة المسجد الجامع والتى صارت مثلا .

يلحق بهذه الصورة أيضا ، وهى ترضى الخيال المسيحى إبان الصراع القائم بين الإسلام والمسيحية فى الأندلس أن يكون المسلم وأخته فى الحكاية السابعة والأربعين سارقى

أكفان الموتى ، وأن تكون الأخت التي تخاف من كركرة صوت القلة ، تجز عنق الميت لتأخذ سلبه ، مع أن العادة أن الميت المسيحى ربما يحمل بعض ما يملكه في دنياه فضلا عن الكفن الفاخر ، والتابوت الذى يدفن فيه ، وهو أدعى للسرقة من الميت المسلم الذى يكفن فى كفن عادي ، ويهال عليه التراب دون صندوق ، لكنه الصراع القائم بين المسلم والمسيحى هو الذى ينقل المعركة حتى إلى الخيال والأدب .

كان للمقامات أيضا دور هائل فى الأدب الإسبانى فى العصور الوسطى ، والقصة البيكارسكية أو أدب الصعاليك ، صورة من أدب المقامة العربية ، وهى جنس أدبى عربى ، وقزمان الفرجي ، ولاثاريودى ترمس نماذج واضحة لهذا الأثر العربى ، إلى درجة نقلها بعض مشاهد من الكتب العربية القديمة ، وبخاصة البيت المظلم الخرب ، المنقول عن الأغانى والتنوخى وغيرهما من المصادر العربية القديمة .

وللطفيلين دور جيد فى الأدب العربى والإسبانى وحسب القارىء أن يراجع المقامات ونوادر الطفيلين في المصادر العربية القديمة التى أثرت أثرا هائلا فى الأدب الإسبانى وللأستاذ فرناندو دى لاجرانخا دراسات جيدة عن بيان مسالك هذه النوادر إلى الأدب الإسبانى ، والحكاية السابعة عشرة من القونت لوقانور مثل لنوادر المتطفلين الذين يستجيبون لأول دعوة وربما لا ينتظرونها .

أما الحروب الصليبية فقد تركت علامات بارزة فى القونت لوقانور ، والحكاية الثالثة من كتابه تتحدث عن الوثبة التى وثبها في البحر ريتشارد ملك انجلترا وهو يحارب المسلمين وكيف أنه حاز الدرجات العلى فى الآخرة ، وتغمد الله ذنوبه لأجل هذه الوثبة ، والحكايات - هكذا - تروى تاريخا موشى بالخيال ولي الحقائق ، فالذين اشتركوا فى تلك الحرب الصليبية الثالثة فيليب أوجست ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، ولم يشترك فيها ملك نابارا كما ذكر دون خوان ، إلا لإعلاء ذكر بلاده مع أن الواقع التاريخى غير هذا

وبسبب من الحروب الصليبية أيضا ورد ذكر صلاح الدين الأيوبى مرتين ، ولصلاح صفحة خالدة فى التاريخ الإسلامى وله صفحة بطولية وإنسانية فى التاريخ المسيحى ولأن صورة صلاح الدين فى الآداب الأوربية ينبغى أن تفرد بدراسة خاصة فقد أرجأنا الحديث عنها لما بعد .

أما الأمثال أو الأوابد التى وردت وحدها دون حكايات فنحن نعتقد أنها من الأمثال المتناثرة فى كليلة ودمنة خاصة ، وإعادة تجميع لها فى صفحات مستقلة ومقصود بها قارىء معين ، ربما لا يصبر عليها قارىء القسم الأول من الكتاب ، وربما تكون هذه الأمثال مما قر في الذاكرة الإنسانية عموما ، لكننا أميل إلى الاعتقاد بأن كليلة ودمنة كان أمام دون خوان

مثلا يحتذيه فى كتابه كله ، ومع كل هذا فنحن نراه قد أبدع نصا أدبيا ، تختلف الآراء حول مصادره ، لكنه - فى أغلبه - استطاع أن يسبغ عليه ثوبا يكاد يكون خاصا به ، وحسبه أنه من كبار الكاتبين فى اللغة القشتالية .

هوامش

1- Obras Completas . 1 . Ed J . M . Blecua .Pag . 133 . Madrid . 1981 .

2 - Castalia انظر . مقدمة : القونت لوقانور – طبعة

3 - Uease : El Conde Lucanor : Ed : Alfonso . I . sotelo . Catedradra : Pag : 18- 19 .

٤ –المصدر السابق ،نقلا عن Giménez Soler

٥ –فى مقدمة كتابه الفونت لوقانور يعترف دون خوان بأنه كتب كل كتبه الرومانثية ، ويقرر مؤرخوه أنه صنع هذا لا جهلا باللغة اللاتينية ، فإنه يقرأ بها ، ويستشهد ويترجم منها ، ولكن لتلقى كتاباته مزيدا من الجماهيرية والقبول لدى الكافة . انظر ص ٢٢ وهوامشها من الكتاب المذكور فى هامش ٣ .

6 - Uease : Luis Rubio Garcia : la fecha de la muerte de Don juan manuel .

من كتاب دون خوان مانويل فى ذكراه السابعة بعد المئة طبعة جامعة مرسية ، أكاديمية ألفونسو العاشر الحكيم . ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

٧ – انظر : تاريخ الفكر الأندلسى ، أنخل جونثالث بالنثيا ، وترجمة د . حسين مؤنس – ص ٦٢٣ ، وهامشها . ط مكتبة النهضة المصرية .

٨ ـ انظر : مقدمة القونت لوقانور - طبعة :

Enrique Moreno Beaz . Ed : X . Castaléa - 1981 .

٩ - انظر المرجع المذكور فى هامش ٣ - ص ٢٨

١٠ - انظر المرجع السابق ، هامش ٦٦ ص ٣٥ ، حيث يذكر باسكوال جيانجوس أنه كان موجودا لدى الملكة إيزابل فى قائمتها ، كما يذكر خمينيث سولير أن الملكة ماريا طلبت أن يحضر لها هذا الكتاب .

١١ - القصص الحكيم - للفيلسوف إيسوب ، ترجمة مصطفى السقا وسعيد جزدة السحار . ص ١٢ - مكتبة مصر . د . ت .

١٢ - أنظر : أدب ونقد - لكاتب هذه السطور ص ٣٢ ، ٣٣

١٣ انظر المرجع المذكور فى هامش ٣ ص ٤٤ .

١٤ - المرجع المذكور فى هامش ٧ ص ٥٨٦ .

١٥ - انظر المرجع المذكور فى هامش ٣ ص ٥٢ .

١٦ - تذكار جيتى - العقاد ص

وانظر : المازنى شاعرا لكاتب هذه السطور ص ٦٦ ، ٦٧

١٧ - انظر تاريخ الفكر الأندلسى ص ٥٨١ .

١٨ - السابق ص ٥٨٢ .

١٩ - كليلة ودمنة . الطبعة الثانية - دار الشعب . ص ٢١ ، ٢٢

٢٠ - انظر مقدمة : ElConde Lucanor . C . Austral. Eshasa

Calpe - Madrid

الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٥ - ص ١٤ .

٢١- راجع البحث الجيد الذى نشره دون فرناندو دى لاجرانخا بعنوان - Oregen Arabe de un famoso Cuento espanol
Al Andalus . Vol : xx1v 1956 . Fasc 2 .

وانظر ترجمتنا له فى كتابنا « تأثيرات عربية فى حكايات إسبانية - مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦ .

٢٢ - القصص الحكيم للفيلسوف إيسوب - ترجمة مصطفى السقا وسعيد جودة السحار ص ١٧٣ وما بعدها مكتبة مصر

٢٣ - كليلة ودمنة - ص ٨٣ .

٢٤ - العقد الفريد ص

٢٥ - القصص الحكيم ص - ١٢٢ وما بعدها

٢٦ - جحا الضاحك المضحك - العقاد - ص ١٤٥ وما بعدها .
ط . الهلال - أغسطس ١٩٥٦

٢٧ - انظر مواضع متفرقة لتأثير نوادر جحا فى « تأثيرات عربية فى حكايات إسبانيا » بترجمتنا .

٢٨ - انظر : Espana en su historia , Cristeanos , moros y gudios
. pag 61

٢٩ - القصة القصيرة دراسة ومختارات . د . الطاهر أحمد مكى - ص ١٤ ، ١٥ . دار المعارف

٣٠ - راجع كليلة ودمنة « باب البوم والغربان » وقد اختصرناه جدا .

٣١ - القصص الحكيم ص ١٥٤ وما بعدها

٣٢ - راجع كليلة ودمنة « باب الأسد والثور » .

٣٣ - المصدر السابق ص ٢٥ .

٣٤ - الذخيرة ابن بسام - جـ ٢ ص ٧٣ تحقيق د . إحسان عباس .

٣٥ - راجع . خمس مسرحيات أندلسية بترجمتنا .

فصول
من القونت لوقانور

الحكاية الأولى

ما حدث لأحد الملوك مع وزيره

بينما كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو ، قال له :

- باترونيو ، رجل معروف ، غنى ، قوى يعتز بصداقته القوية لى قال لى سرا منذ بضعة أيام قليلة ، إنه يريد أن يرتحل من هنا إلى غير عودة ، نظرا لأشياء حدثت له ، ولودى له وثقتى به ، يريد أن يبيعنى جزءا من أراضيه ، ويدع الباقى تحت رعايتى ، ويبدو لى هذا شيئا مناسبا ، ويشرفنى ، لكن قبل أن أنهى الأمر أود أن أسمع رأيك .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور : إنى وإن كنت أعتقد أن نصيحتى لا تقدم لك كثيرا ، ولأنك تريد أن أقول لك ما أفكر فيه ، أقول لك رأيى الآن . فى المقام الأول أنبهك إلى أن ما قاله هذا الذى تفكر فيه أنه صديقك إنما كان ليختبرك ، وهو أمر شبيه بما حدث لأحد الملوك مع وزيره .

رجاه القونت أن يقص عليه الحكاية

- قال باترونيو : سيدى ، كان لأحد الملوك وزير يثق فيه كثيرا ، ولأن حسد النجاح فى المتناظرين طبيعة فى المرء ، فإن بقية الوزراء نقموا عليه حظوته وتقدمه ، ولم يدعوا فرصة لكى يكرهه الملك سيده ، وبرغم كل ما قالوه كثيرا للملك فإنهم لم يصلوا أبدا إلى أن يكرهه أو لا يثق فى

إخلاصه ، وحين رأوا أن الطرق مسدودة ، قالوا للملك إن هذا الوزير يسعى لموته لكى يخلفه ابنه ، الذى لم يزل صغيرا ، ويكون بذلك تحت وصاية الوزير ، وأن يقتله فيما بعد ، ويستولي على الملك ، وبرغم أنهم لم يصلوا إلى أن يرتاب الملك فى وزيره ، إلا أنه لم يعد فى وسعه أن يسكت الشك الذى داخل ضميره ، وككل الأمور الخطيرة ، وكل شئ يضيع ، ولا يعوض ، فإن العاقل لا يجب أن ينتظر ، بل يستعد للأمور الطارئة ، حدث أن الملك منذ أن طرقه الشك والريب ، يمضى متوجسا ، وإن لم يعزم أن يفعل شيئا ضد وزيره ، حتى يتبين وجه الحق ، أما الذى كانوا يبحثون عن ضياع الوزير فإنهم قالوا للملك إن فى ذرعه أن يختبر فى سذاجة ما أكدوه له ، وشرحوا له ما عليه أن يفعله ، قرر الملك أن يصنع هذا حقيقة وواقعا ، فصنعه بالطريقة التى أحكيها الآن .

بعد أيام قلائل ، وهو مع وزيره ، فى غمرة كلام كثير قال له إنه متعب جدا من الدنيا ، ويبدو له أن كل شئ باطل ، ثم سكت بعد ذلك ، وبعد أيام قلائل من هذا الحديث ، وهو مع وزيره مرة أخرى ، كأنه يبدأ الموضوع ، عاد يقول له إنه لم يعد يحب الحياة التى يحياها ، وما يراه من حوله ، قال هذا مرارا ، وبنبرات مختلفة ، إلى درجة أن الوزير اعتقد أن الملك اكتشف وهم مجد الدنيا ، والثروات ، والملذات ، حتى فطن الملك إلى أنه أقنعه بهذا ، أخبره ذات يوم أنه يفكر فى

أن يطلق الدنيا ، وأن يذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، باحثا عن مكان منفرد ، قصى ، يمكنه فيه أن يكفر عن ذنوبه ، ويود بهذا أن يرحمه الله ، وأن ينعم الله عليه ببلوغ الطريق المستقيم إلى الحياة الأخرى .

حين سمع الوزير هذا ، حاوره بأدلة كثيرة ألا يفعل هذا ، من بين كلام كثير قال له إن ترك رعية كثيرة مثل رعية مملكته ، يرعاها فى سلام وعدل ، شئ خارج عن طاعة الله ، يمكن أن يتأكد الملك أنه إذا فعل هذا تنجم فوضى ، وحروب أهلية ،يعصى فيها الله ، ويلحق بالبلاد ضرر كبير ، وإذا لم يفعل هذا لذلك فعليه أن يفكر في الملكة زوجته ، وفى ولده الذى لا يزال صغيرا ، اللذين بلا ريب سيكونان فى مهب الخطر ، وفقدان الثروة ، والحياة .

قال الملك إنه قبل أن يقرر الرحيل ، فكر فى كيف يدع المملكة فى نظام ، لكى تظل الملكة وابنه يحظيان بالاحترام ، وأن تبقى الرعية في أمان ، وهذه هى الوسيلة : بما أنه قد ربى الوزير ، وقدم له الكثير ، وهو مسرور بخدمته وإخلاصه ، ويدرى أنه يمكنه الوثوق به أكثر من أى وزير آخر ومن أى مستشار ، فإنه يريد أن يترك زوجته وابنه فى كنفه ، وأن يعطيه كل الحصون ، وأقاليم المملكة ، لئلا يتمكن أحد من إلحاق ضرر بولده ، وهو بهذه الطريقة واثق أنه إذا عاد فيجد أن كل شئ تركه فى يده سيكون منظما ، وإن مات

فإنه سيخدم الملكة بإخلاص ، وأن يربى ولده تربية حسنة ، وأن يبسط السلام على المملكة ، حتى ينهض ولده بالحكم .

بهذه الطريقة فكر فى ترك الأمور على هذا النظام .

حين سمع الوزير ما قاله له الملك من أنه يود أن يترك تحت إمرته المملكة وابنه - وإن كان لم يبد أى شئ - إلا أنه سر جدا ، مفكرا فى أن كل شئ إذا آل أن يكون تحت إمرته يمكنه أن يتصرف وأن يحكم كما يحلو له .

ذلك الوزير كان فى بيته عبد فيلسوف ، تعود أن يستشيره دائما ، وأن يستعين برأيه فى كل ما يفعله ، دون أن يصنع شيئا دون رأيه ، حين خرج فى ذلك اليوم من القصر ذهب يبحث عنه لكى يقص عليه ما قاله الملك ، دون أن يخفى سروره بأن الملك أراد أن يدع المملكة والأمير فى يديه ، حين سمع العبد الحكيم الحكاية من سيده التى عرضها عليه الملك ، واقتنع بأن سيده مستعد لأن يبقى مع الابن والمملكة أدرك أنه وقع فى فخ شرع يؤنبه فى غلظة ، قائلا له إنه عرض حياته وماله للخطر ، لأن كل ما قاله له الملك لم يفكر حقيقة أن يصنعه ، بل لأنه مدفوع بأعدائه الذين نصحوا الملك أن يقول له هذه الأمور لكى يختبره ، وهو امتحان خرج منه خاسرا ، فاغتم الوزير كثيرا ، لأنه رأى الأمر بوضوح كما حكاه له عبده ، حين رأى الحكيم مدى غمه ، أشار عليه كيف يتجنب المخاطر التى أدخل نفسه فيها .

اقتنع الوزير ، فى تلك الليلة ذاتها حلق رأسه ، ولحيته ، وبحث عن ثوب مهلهل جدا ، كتلك الثياب التى يلبسها المساكين فى الطرقات ، وعن عكاز ، وحذاء رث ، وإن كان مؤطرا بحديد ، ودس فى ثنايا هذا الثوب كمية كبيرة من العملة الذهبية ، وحين طلع الفجر ذهب إلى القصر ، وقال للحارس على الباب أن يقول للملك سرا أن ينهض قبل أن يستيقظ الناس ، فإنه فى انتظاره ، حين رآه الحارس هكذا ، اندهش جدا ، إلا أنه دخل على الملك وقال له ما أمره به الوزير ، الملك وهو مندهش جدا أمر أن يدخل عليه حالا ، وسأله لماذا لبس بهذه الصورة ؟ قال له الوزير إنه أخبره برغبته فى ترك البلاد ، وقد قرر ذلك فعلا ، ولم يشأ الله أن ينسينى ما فى عنقى لك ، وقد جعلنى أشاركك فى المجد ، والرخاء ، فليجعلنى أشاركك فى الفقر ، وفى التقشف الذى تتحمله ، وإذا كنت وأنت ملك لم تأسف لأنك أب وزوج ، لولد وزوجة فلا ينبغى أن يأسف لمثل هذا وزيرك ولذا قررت أن أذهب معك ، وأن أخدمك بطريقة لن يكشفها أحد ، ولهذا فمعى مال كثير خطت عليه الثوب يكفينا حياة طويلة ، وبما أننا قررنا الذهاب فخير أن نمضى قبل أن يعرفنا أحد ، حين سمع الملك كل ما قاله وزيره ، تصور أنه مدفوع بإخلاصه ، فشكره كثيرا ، وقص عليه ما افتراه الوزراء ، وأنه قال له هذا لكى يختبره ، وقد كان الوزير على حافة

خداع نفسه بطموحه ، لكن الله أراد أن يحفظه بنصيحة عبده الحكيم.

ولذا يا سيدى القونت ، من اللائق ألا تخدع بما قاله لك صديقك لأن ما قاله لا هدف له سوى اختبارك ، وما يبقى هو أنك حين تحدثه تقنعه بأنك تريد فقط له الخير والنفع ، وليس لديك طمع فى شئ يخصه ، وبهذا لا يمكنه أن يشك فى الصداقة التى يرتاب فيها واحد فى الآخر.

رأى القونت لوقانور أن باترنيو أشار عليه مشورة حسنة ، فعمل بمشورته ، وأثمرت ثمرتها ، وإذ رأى دون خوان حسن هذه الحكاية ، ضمها إلى كتابه ، ونظم هذه الأبيات التى تؤلف المغزى الخلقى :

لا تنتظر من أحمق
أن يفقد ماله ولو كان .....
يستشاوى ثنية
لكى يعطيه صديقه

كذلك نظم هذه الأبيات الأخرى :

بعون الله ، وبنصيحة خالصة
ينقذ المرء حياته
حتى يعمر إلى الشيخوخة .

الحكاية الثانية

ما حدث لفلاح شريف مع ولده

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور، مع مستشاره باترونيو ، قال له إنه كان مهتما بأمر يود أن يفعله ، وإذا فعله فإنه يدرى جيدا أن أناسا كثيرين سينقدونه ، وإذا لم يفعله فإنه مقتنع كذلك باحتمال نقدهم له ، ومعهم الحق أيضا ، وبعد أن شرح له الأمر رجا باترونيو أن يقول له ما يفعله بهذا الشأن .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، أعلم جيدا أن كثيرين فى ذرعهم أن يشيروا عليك أفضل منى ، فضلا عن أن الله وهبك إدراكا ليس فى حاجة إلى إشارتى ، وبما أنك تريد ، فإنى أقول لك ما أعتقد وجوبه ، لكن قبل ذلك أود أن تأذن لى أن أحكى لك ما حدث ذات مرة لفلاح شريف مع ولده قال القونت إنه يأذن له برغبة شديدة .

- شرع باترونيو : سيدى ، كان هناك فلاح شريف له ولد ، بالرغم أنه لا يزال فتى إلا أنه شديد الذكاء ، كل مرة يود أبوه أن يفعل شيئا يخبره بالعقبات التى يمكن أن تحول ، وبما أن الأشياء قليلة ، فإنه يقصيه عن أشياء كثيرة تناسبه ، وأنتم تعرفون أن الشباب الذكى هم أكثر الناس تعرضا لعمل شئ لا يناسبهم كثيرا ، ولديهم وعى للتصدى لما لا يدركون كيف ينهونه ، ولذا إذا لم ينتصحوا فإنهم يخطئون

مـرارا ، وهكذا كـان ذلك الفـتـى ، لحدة ذكـائـه ، وقلة تجـربتـه يمثل عـائـقـا أمـام أبيـه فى مناسـبـات مـتـعـددة ، ولذا بعد أن تحمله وقـتـا طويلا ، وضجـر جدا بسبب الأضرار التى تلقاها ، لأنه لم يدعه يفعل ما يراه ، وما يقوله له دائما ، قرر أن يفعل ما أقوله لك الآن ، بهدف أن يصلح توبيخا له ، ومثلا لما يفعله من الآن فصاعدا .

كان الرجل وابنه فلاحين ، يعيشان قريبا من إحدى القرى ، فى يوم سوق قال لابنه لنذهب معا لشراء أشياء نحتاجها ، ذهبا معا ماشيين ، وحمارهما بلا حمولة ، وجدا رجالا قادمين من القرية إلى حيث يذهبان ، بعد إلقاء التحية ، وابتعادهما قليلا ، شرع الرجال يتحدثون فيما بينهم ، أنه يبدو غير معقول أنه لا الأب ولا ابنه يركبان الحمار ، وأن يمشيا ، حين سمع الفلاح هذا سأل ابنه ما رأيك فيما قالوه ، أجابه الفتى بأنه غير طبيعى أن يمشيا ، حينئذ أمر الفلاح الشريف ولده أن يركب الحمار .

حين مضيا هكذا فى الطريق ، وجدا رجالا آخرين ، حين ابتعدا عنهم قليلا ، قالوا ليس حسنا أن يمشى الفلاح الشريف ، وهو عجوز ، مرهق ، بينما ولده ،وهو فتى ، ويستطيع تحمل التعب - يركب ، حينئذ سأل الأب ابنه ما رأيك فيما قالوه ، أجاب الفتى ، معهم حق ، وبهذا أمر ولده أن ينزل ، ويركب هو .

بعد قليل عثرا بآخرين قالوا من الحماقة ترك الفتى ماشيا ، وهو لين العود ، ولم يتعود التعب بعد ، بينما الأب متعوداً عليه يركب ، حينئذ سأل الفلاح ولده ما رأيك فيما قيل ، أجابه الفتى بأن كلامهم صحيح فيما يرى ، حين سمعه الأب أمره أن يركب هو أيضا لكيلا يمشي واحد منهما .

ذاهبين هكذا وجدا أخرين شرعوا يتحدثون عن أن الحمار هزيل ، لا يكاد يستطيع المشي خاليا ، وجريمة أن يركبه اثنان ، سأل الفلاح الشريف ولده ما رأيك فيما قالوه ، أجاب الابن بأن كلامهم صحيح ، حينئذ حاوره الأب بهذه الطريقة :

- يا بني ، تذكر أننا خرجنا من الدار كنا ماشيين على الأقدام ، وكان الحمار بلا حمولة ، وقد أيدت هذا ، وحين التقينا برجال في الطريق نقدوا الوضع ، أمرتك أن تركب الحمار ، وظللت أنا ماشيا ، وقد أيدت هذا أيضا ، بعد ذلك التقينا بآخرين قالوا ليس حسنا حسب رأيهم ، فنزلت أنت وركبت أنا ، وقد رأيت هذا حسنا ، ولأن الذين لقيناهم بعد ذلك نقدونا ، وأمرتك أن تركب معي ، قلت إن هذا أفضل من أن تمشي أنت وأركب ، والآن هؤلاء يقولون إننا لا نحسن بركوبنا معا ، وقد أيدت هذا كذلك ، ولن تستطيع نكران شئ منه ، أرجوك أن تقول لي ما يمكننا صنعه دون أن ننتقد . لقد نقدونا حين مشينا معا ، وحين ركبت أنت ومشيت أنا ، وبالعكس ، والآن ينقدونا لركوبنا معا تأمل جيدا أن علينا أن

نفعل واحدة من هذه الأشياء ، وكلها منقودة . وهذا صالح لتفهم كيف تسير في حياتك ، وتقتنع أنك لن تفعل شيئا يروق للناس جميعا ، فإنك لو فعلت حسنا تجد الأشرار والذين لا يفيدون منه ينقدونه ، وإذا فعلت سيئا فإن الطيبين الذين يحبون الخير لن يستطيعوا أن يزكوا فعلا رديئا ، ولذا إذا أردت أن تفعل ما يناسبك فافعل ما تعتقده مفيدا ، وبهذا لا يكون رديئا ، وفى أية حال لا تدعه خشية ما يقولونه ، لأن الحقيقة أن الناس يقولون أول شئ يخطر ببالهم ، دون أن يفكروا مليا فيما يناسبنا .

وأنت يا سيدى القونت لوقانور ، قد طلبت منى مشورة حول ما تريد فعله ، لكنك تخشى أن ينتقدوك ، وإن كنت على يقين من نقدهم حتى وإن لم تفعله ، فإنى أنصحك قبل أن تفعل أن ترى الضرر والنفع الذى يمكن أن يجلبه ، دون أن تثق فى رأيك ، حذرا من أن تخدعك شدة الرغبة ، وابحث عن نصيحة الألباء ، المخلصين ، الحافظين للأسرار ، فإذا لم تجد هذه النصائح ، فحاول ألا تتخذ قرارات طائشة ، إلا إذا كانت أمورا لا تضيع بالتسويف ، واترك على الأول يوما أو ليلة تمر مع تلك الاحتراسات أنصحك ألا تدع فعل شئ مناسب لك خشية النقد .

رأى القونت أن نصيحة باترونيو جيدة ، فعمل بها ورأى العاقبة حسنة ، حين سمع دون خوان هذه الحكاية ، أمر أن

تضم إلى كتابه ، ونظم هذه الأبيات التي تحوى هذا المغزى :

خشية النقد لا تدعك تفعل شيئا يبدو لك مناسبا

الحكاية الثالثة

عن الوثبة الى وثبها فى البحر الملك ريتشارد ملك انجلترا ، وهو يحارب المسلمين

ذات يوم تشعب الحديث بين القونت لوقانور ، وبين باترونيو مستشاره ، فقال له :

- باترونيو ، إننى أثق جدا فى رأيك ، وأدرى أن ما لا تعرفه ، وما لا تتأكد منه لا يعرفه ولا يؤكده أحد فى الدنيا ، ولذا أرجو أن تشير على بخير ما تستطيع أن تشير به فى الأمر الذى أحكيه لك الآن . تدرى جيدا أننى لست شابا ، وقد ولدت ونشأت وعشت دائما فى جو حروب ، مع نصارى ومع مسلمين ، وحين تهدأ ، تنشب حروب بينى وبين الملوك سادتى ، وبينى وبين جيرتى ، برغم أننى أحاول دائما ألا أبدأ بحرب مطلقا مع النصارى وأكون أنا السبب ، إذ لا حائل دون أن يتضرر بها كثير من الأبرياء ، هذا شىء وشىء آخر لئلا يعصى الله ، فضلا عن أننى أرى أنه لا أحد ولا شىء فى العالم يمكنه أن يؤكد لى أننى لا أموت اليوم ، إضافة إلى أن من فى مثل سنى لن يعيش طويلا ، متأكد من ذلك تأكدى من وجودى ، أننى بعد الموت سأمثل أمام الله رب العالمين الذى سيحاسبنا ، لا على كلماتنا الباطلة ، بل على أعمالنا الطيبة والسيئة التى قدمناها ، عارف جيدا ، - لسوء حظى - أن الله

إذا غضب على لن ينجينى أحد من عذاب جهنم ، خالدا فيها ، وإذا كان الأمر غير ذلك ، فوجدنى أهلا للعفو فسوف أكون فى نعيم حيث الصالحون ، ولا نعيم فى الدنيا يعدل هذا النعيم ، ولن نستحق هذا دون أعمال صالحة ، أود أن تفكر وأن تشير على بخير طريقة تناسب حالتى ، ومقامى ، لكى أكفر عن سيئاتى ، وأكون فى رضا الله .

- قال باترونيو : سيدى القونت ، أسعدنى رأيك ، وما أسعدنى أكثر أنك قلت إنى ينبغى أن أشير عليك بما يناسب حالتك ومقامك ،لأن الأمر لو كان غير ذلك لاعتقدت أنك تريد اختبارى ، كما فعل الملك الذى ساحدثك يوما آخر عنه نخصه بالكلام ، كذلك أسعدنى أنك تريد أن تكفر حسب حالتك ، فالحق يا سيدى القونت ، إذا أردت أن تهجر العالم ، لكى تتنسك ، أو تعتزل الدنيا ، فلن تستطيع الحيلولة دون حدوث أمرين : أولهما أنك تكون منقودا من الجميع ، إذ يقولون إنك صنعت هذا لغواء روحى ، لأنه لا يروق لك الحياة مع الوجهاء ثانيهما يقرب من المستحيل أن تستطيع تحمل فظاعة الدير ، وإذا هجرته فيما بعد ، أو عشت فيه دون تطبيق الواجبات كما ينبغى ، فسوف تعذب نفسيا ، وجسديا ، وتخجل لفقد الهيبة . أما إذا كنت تود أن تفعل ما يليق بحالتك ، فإنى يروق لى أن تعرف ما ألهمه الله لناسك قديس ، وملك انجلترا .

رغب إليه الفونت أن يقص عليه الحكاية :

– قال بالتروتيو : سيدي الفونت لوفالتور : كان هناك ناسك قديس ، كان يفعل الخير ، وكثير التوبة ليحظى برضا الله ، ولهذا وعده الله أن يدخله في رحمته ، حمد الناسك ما أوحاه الله إليه ، وحين تيقن من هذا طلب من الله أن يثبته بمن سيكون صاحبه في الجنة ، وبرغم أن الله أمره صراحة بواسطة ملك الوحي ألا يسأل ، إلا أن الناسك ألح في طلبه ، أن يقبل الله فأوحى الله عن طريق ملكه أنه سيجمعه هو والملك ريتشارد ملك انجلترا في الجنة ، وقد ثقل الأمر على الناسك ، لأنه يعرف الملك جيدا ، ويعرف أنه شديد الميل إلى الحروب ، وقد أمات ، وسلب ، وأفقر أناسا كثيرين ، وأنه يسلك طريقا مخالفا لطريقه ، وهو بعيد تماما عن طريق النجاة ، ولذا اغتم الناسك كثيرا ..

حين رآه الله بهذه الصورة ، أمره بواسطة ملكه ألا يشتكي وألا يندهش لما قاله ، لأن الملك ريتشارد استحق بوثبة واحدة ما استحقه الناسك بكل أعماله الصالحة طوال حياته ، اندهش الناسك أكثر ، وسأل الملاك وكيف يمكن هذا ..

قال له الملاك إنه ملك فرنسا ، وملك انجلترا ، وملك نافارا ، ذهبوا إلى الأرض المقدسة ، وحين وصلوا إلى الميناء ، كانوا جميعا مسلحين لغزو الأرض فرأوا حشدا حاشدا من المسلمين ، فشكوا في عدم استطاعتهم النزول من السفن ، فأرسل ملك

فرنسا إلى ملك انجلترا أن يأتى إلى سفينته ليتذاكرا ما قالوه قبلا ، استمع ملك أنجلترا -وهو فوق حصانه - فقال للرسول أن يجيب ملك فرنسا أنه يعلم جيدا أنه ارتكب معاصى كثيرة فى حياته ، وهو يدعو الله دائما أن يمنحه فرصة ليصلح ما فاته ، والله بفضله قد منحه اليوم الذى يريده ، لأنه إذا مات هناك فإنه واثق من هذا لأنه تاب قبل أن يخرج من أرضه ، واعترف أن يتغمد الله روحه برحمته ، وإذا انهزم المسلمون فيكون قد أطاع الله ، ويكونون هم سعداء الحظ .

حين قال ذلك ، عهد إلى الله بروحه وجسده ، ورجا عونه ، وصلب ، وأمر عساكره أن يتبعوه . وهمز حصانه ، وقفز إلى البحر ، وبرغم أنهم كانوا قريبين من الميناء جدا إلا أن البحر لم يكن ضحلا ، لدرجة أن الملك وحصانه غطسا للحظة ، لكن الله الرحيم ، القادر تذكر ما قاله فى كتابه من أنه لا يريد موت المذنب ، حتى يتوب ويحيا ، فأعان ملك انجلترا ، ونجاه من الغرق ، وأعطاه حياة مؤقتة وأبدية ، ولذا اتجه الملك إلى مواجهة المسلمين .

حين رأى الانجليز ما فعله سيدهم قفزوا وراءه ، واتجهوا صوب المسلمين ، كذلك فكر الفرنسيون أنه من العيب ألا يصنعوا صنيع الانجليز ، ممتلئين بالمنافسة النبيلة ، فقفزوا إلى البحر ، أما المسلمون حين رأوهم قادمين صوبهم دون

خشيـة من الموت ، وبحماسة شديدة ، فلم يستطيعوا انتظارهم ، فتركوا الميناء ، وشرعوا فى الهرب ، أما النصارى - وقد وصلوا إلى الميناء - فقد قتلوا كثيرين ممن استطاعوا الوصول اليهم ، وانتصروا ، وبذا أقرضوا الله قرضا حسنا كل هذا تم بوثبة ملك انجلترا إلى البحر .

حين سمع الناسك هذا سعد جدا ، وأدرك أن الله أنعم عليه وقدر له أن يكون بصحبة رجل قد أطاع الله بهذه الطريقة ، وأثنى على العقيدة المسيحية .

فانظر سيدى القونت لوقانور ، إذا أردت طاعة الله ، وأن تستغفره من الذنوب التى قدمتها ، فحاول قبل أن تترك أرضك إصلاح الضرر الذى صنعته ، وأن تستغفر من الذنوب ، ولا تهتم بباطل الحياة ولا تبال أبدا بمن يقولون إنك تتجنى على شرفك ، وهذا يعنى بالنسبة لهم رعاية كثيرين دون أن يروا بماذا ولا كيف ينتهى ما يصنعون وكيف يعيش نسلهم . انظر سيدى القونت ، أنت تقول إنك تريد طاعة الله ، وأن تستغفره ، إذن فلا تتبع سبيل الباطل ، وأن الله منحك سيادة فتستطيع أن تطيعه بحرب المسلمين سواء فى البر والبحر ، فجاهد لكى تؤمن كل ما تملك ، وتنظمه ، وبهذا يمكنك تغمد زللك ، لتكون روحك طاهرة ، وتكون أهلا لهذا بعملك الصالح ، وأن تفكر فقط فى حربك ضد المسلمين ، وأن تقدم حياتك طاعة لله ، هذا بالنسبة لى أفضل وسيلة لإنقاذ

الروح حسب حالتك ومقامك ، ويمكنك أيضا أن تثق أن طاعتك الله بهذه الصورة ، لن تموت قبلا ولن تعيش وأنت فى أرضك يوما واحدا . وإذا مت فى طاعة الله فى هذه الدنيا فسوف تكون شهيدا ، وتحظى برضا الله . وبرغم أنك لا تموت فى حرب فإن نية الحرب ، وعملك الصالح تكون فى درجة الشهداء ، أما الذين يريدون انتقادك ، فلا يستطيعون ، لأنهم يتمكنون من رؤيتك أنك لم تترك شيئا واجبا عليك بوصفك فارسا ، بل يرون أنك تريد ذلك لوجه الله وترك الاستسلام لنزغات الشيطان ، وباطل الدنيا الذى يماثل الدخان . وها أنذا سيدى القونت أقدم لك - حسب ما طلبت منى - رأيى فى وسيلة إنقاذ الروح حسب حالتك ، وعلى هذا فبار وثبة ملك انجلترا الصالح ريتشارد وعمله البطولى عند النزول من السفينة .

راق للقونت لوقانور كثيرا مشورة باترونيو ، ودعا الله أن يعينه فى تحقيق ما قاله له وما يريده هو ، وإذ رأى دون خوان هذه الطريق الحسنة لهذه الحكاية أمر أن تضم إلى هذا الكتاب ، ونظم هذه الأبيات التى تلخصها ، وتقول ما يلى :

كل من يظن نفسه فارسا
فعليه أن يتبارى فى الوثبة
وألا يقيد نفسه فى دير
عالى الجدران لكى يعبد الله .

الحكاية الرابعة

ما قاله رجل جنوى لزوجه وهو يحضر

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور إلى باترونيو مستشاره يحكى له ما يلى : - باترونيو : الحمد لله أن لدى أراضى المثمرة المخصبة ، وأعيش فى سلام ، ولا ينقصنى ما هو ضرورى لحياتى ، حسب ما أنا عليه ، وربما كان عندى أكثر . ينصحنى بعضهم أن أقيم مشروعا نجاحه مشكوك فيه ، وبالرغم من أننى حقيقة أجدنى منجذبا إليه ، فلست أريد الشروع فيه دون أن أتحدث معك ، ودون أن أرى ما تشير به على .

- قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : لكى تصنع ما هو صالح لك يروق لى أن تعرف ما حدث لرجل من جنوة ساعةالوفاة .

- رغب إليه القونت أن يقص عليه الحكاية .

- قال باترونيو : سيدى القونت : كان أحد الجنويين غنيا جدا ، ومحظوظا بين ذويه من طبقته ، هذا الرجل مرض مرضا شديدا ، وحين أحس بوطأة الموت ، أرسل إلى أقربائه وأصدقائه ، ولما اجتمع هؤلاء ، وبينهم زوجته وأولاده ، جلس فى قاعة جميلة جدا ، منها يرى البحر ، وجزءا من الشاطىء أمر بإحضار كل ثروته ، وكل جواهره ، وشرع يتحدث - كأنه

يسخر - إلى نفسه ، بهذه الطريقة :

- يا نفسى : أراك ترغبين فى هجرانى ، ولا أدرى لماذا ، فإذا كنت تبحثين عن زوجة وأولاد فهاهم بين يديك وبهم يمكنك أن تسعدى ، وإذا كنت تبحثين عن أقارب وأصدقاء فأنت ترين الكثير منهم هنا ، وإذا كنت تبحثين عن ذهب وفضة ، وجواهر ، وحلى ، وسجاجيد ، وبضائع للتجارة ، فهنا تجدين الكثير ، وطلب الكثير منها جشع ، وإذا كنت تبحثين عن سفن ومراكب ، لتحظى بالجاه والمال ، وإذا كنت تبحثين عن الضياع ذات الحدائق الغناء ، فأنت لديك هذا أيضا فى تلك الشواطىء ، وإذا كنت تبحثين عن خيول وبغال وطيور وكلاب من أجل الصيد ، والمتعة ، أو للرى لكى تسليك أو كنت تبحثين عن منزل حسن التزيين ذى قاعات ، ومنصات ، وأشياء كثيرة تحتاجين إليها ، فلا ينقصك من هذا شىء ، تتصرفين فى متاع ضخم ، ولست تريدين التمتع به ، تفضلين الذهاب إلى مكان لاتدرينه ، فامضى الآن عليك لعنة الله ، فإن الأحمق من يغتم بالشر الذى يجىء إليه .

- إذن يا سيدى القونت ، أنت والحمد لله تعيش فى سلام ، وفى خير وبشرف ولست أعتقد أنك تعمل عملا معقولا أن تغامر بكل هذا ، وأن تقدم على ما ينصحونك به فربما يقول لك ذلك ناصحوك ، لأنهم يدركون جيدا أنك إذا دخلت فى مشروعك يرونك ملزما بعمل كل ما يريدونه هم بينما وأنت

تعيش فى سلام يعملون ما تريده أنت ، ربما يفكرون أنهم بهذه الوسيلة يتحسن حالهم ، وهم لا يستطيعون ذلك حين تعيش فى هدوء ، وهنا سيحدث لك ما حدث للجنوى مع نفسه ، فنصيحتى مادمت تعيش فى سلام وسكينة ، فلا تقدم على مشروع يحدث لك منه مخاطر .

راق للقونت كثيرا تلك النصيحة التى قدمها له باترونيو وعمل بها ، وكانت عاقبتها طيبة ، وحين سمع دون خوان تلك الحكاية ، أعجبته كثيرا ، لكنه لم يرد أن يشفعها بشعر يضم مغزاها بل اختار هذا المثل الذى تقوله العجائز القشتاليات وهو :

لا ينهض من مقعده من يجلس مستريحا .

الحكاية الخامسة

« ما حدث لثعلبة مع غراب كان فى منقاره قطعة جبن »

مــرة أخــرى كــان يتــحــدث القــونت لوقــانور مع باترونيومستشاره قائلا :

- باترونيو : قال لى أحد أصدقائى إن رجلا ، أنشأ يثنى على كثيرا ، وأفهمنى أننى ذو فضل ، وسلطان عظيم . حين بدأ يصانعنى بهذه الطريقة وبكل ما فى وسعه ، اقترح على شيئا يبدو لى مناسبا .

وبدأ القونت يحكى لباترونيو ما اقترحه صديقه ، وهو وإن كان يبدو للوهلة الأولى مفيدا ، إلا أنه يطوى خديعة ، لمحها باترونيو فقال للقونت :

- سيدى القونت لوقانور : اعلم أن هذا الرجل إنما يريد خداعك ، فيوقع فى روعك أن فضائلك وسلطانك أكبر مما هى فى الواقع ، ولكى تنجو من الخديعة التى يريد إلحاقها بك ، يروق لى أن تعــرف مــا حــدث للغــراب مع الثــعلبــة .

- قال باترونيو : سيدى القونت : عثر الغراب مرة على قطعة جبن كبيرة ، فصعد شجرة ليأكلها كما يشتهى ، دون أن يزعجه أحد . وبينما هو كذلك رأته ثعلبة ، وحين لمحت الجبن ، بدأت تفكر فى وسيلة تأخذها منه بها ، ولهذا قالت له :

- سيدى الغراب : منذ زمن بعيد ، وأنا أسمع الحديث عن كمالاتك وجمالك ، وبالرغم من أننى بحثت عنك كثيرا ،

فلإرادة الله ، ولسوء حظى ، لم أرك حتى الآن ، وإذا بى أجدك خيرا مما قيل لى ، ولكى ترى أننى لا أداهنك ، أقول لك - بجانب مدح الناس لك - تلك النقائص التى ينسبونها لك ، يقول الناس جميعا إن لون ريش جناحيك وعينيك ، ومنقارك ، ورجليك ، وأظافرك كلها سوداء ، وهذا اللون ليس له جمال الألوان الأخرى ، وكل هذا يجعلك قبيحا دون أن يدركوا أنهم مخطئون ، فإنه بالرغم من أنه من الحق أن جناحيك سوداوان ، فإن سوادهما لامع يعكسان زرقة ريش الطاووس ، وهو أجمل طيور الدنيا ، وبالرغم من أن عينيك سوداوان ، فإن اللون الأسود فى العيون هو أجمل الألوان فيها ، فإن خصائص العيون أن ترى ، وبما أن السواد يجعل الرؤية أفضل ، فإن العيون السود هى الأفضل ، مثل عيون الغزال Gacela ، وهى أشد سوادا من أى حيوان آخر ، فهى تحظى بالاعجاب الشديد . كما أن منقارك ، وأظفارك أقوى من أى طائر آخر فى مثل حجمك ، كذلك حين تطير تكون أكثر خفة إذ تستطيع الطيران عكس الريح مهما كانت شدتها الأمر الذى لا يستطيعه طائر آخر كما تستطيع أنت بسهولة . وفضلا عن ذلك فإننى مقتنعة بأنك تام فى كل شىء ، ولم يضع الله فيك أى نقص ، ولا أنفى أنك أعطيت هبة الغناء أفضل من أى طائر آخر ، لكن الله أعطانى فضل أن أراك متأملة فيك فضائل ما سمعت ، سأظل طول حياتى سعيدة إذا

سمعتك تغنى .

انظر جيدا سيدى القونت ، فبالرغم من نية الثعلبة خداع الغراب ، فإن كل ما قالته دائما حقيقة . لا تثق فى الحقيقة المخادعة فإنها أم أسوأ الخداعات والأضرار التى يمكن أن تحدث لك .

حينما رأى الغراب كيف مدحته الثعلبة ، وكيف أنها قالت الحق ، اعتقد فى كل الأشياء التى قالتها ، واتخذ منها صديقة ، دون أن يشك أنها تصنع ذلك لتأخذ منه الجبن الذى فى منقاره . مدفوعا إذن بذلك الثناء ، وبرجائها له أن يغنى فتح منقاره ، فوقع الجبن على الأرض ، فأخذته الثعلبة وهربت به . بهذه الوسيلة خدعت الغراب ، إذ جعلته يعتقد أنه رائع الجمال ، وجمع من الكمالات فوق ما هو فى الواقع .

فيا سيدى القونت لوقانور ، أنت ترى وإن كان الله قد منحك نعما فى كل شئ فإن هذا الرجل يريد إقناعك بما يفعل لخداعك ، فتحفظ منه جيدا ، وعامله كرجل يقظ .

راق للقونت ما قاله له باترونيو ، وعمل به ، وبهذه الطريقة منع ضررا كبيرا ، ورأى دون خوان أن هذه الحكاية طيبة فضمها إلى كتابه ، وشفعها بأبيات شرحت بإيجاز مغزاها ، وتقول :

احذر من أن ينزعك ما فيك

من يمدحك بما ليس فيك

الحكاية السادسة

« ما حدث لطائر السنونو مع الطيور الأخرى حين كان فلاح يبذر الكتان »

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره ، قائلا له :

- باترونيو : قيل لى إن بعض الناس من جيرانى ، وهم أشد منى قوة ، يتحدون ضدى ، ويستعدون لإلحاق ضرر بى ، وأنا لا أظن ، ولا أخشاهم ، ولكن للثقة التى أوليك رياها ، أريد أن تقول لى هل تعتقد أنه ينبغى على أخذ بعض الاحتراس .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، لكى تعمل ما أعتقده صالحا ، يسرنى جدا أن تعرف ماذا حدث للسنونو مع الطيور الأخرى .

سأله القونت : وكيف كان ذلك ؟

- قال باترونيو : سيدى القونت : رأي السنونو أن فلاحا يبذر الكتان ، ولذكائه الشديد أدرك فى التو أن الكتان إذا نما ، يستطيع الناس أن يصنعوا منه الشباك ، والفخاخ لصيد الطيور فذهب حالا إلى بقية الطيور ، واجتمع بها ، قائلا لها ، إن الفلاح بذر الكتان ، وفى اعتقادها الجازم أن الكتان إذا نما سيسبب لها خطرا شديدا ، ولهذا أنصح قبل النمو أن تذهب لاقتلاعه ، لأن جميع الأمور تؤخذ أفضل فى

البداية ، وبعد ذلك تصعب مواجهتها لم تهتم الطيور بالأمر ، رافضة عمل ما اقترحه السنونو ، بالرغم من أنه ألحف فى ذلك حتى اقتنع أنه لن يهتم طائر بشئ . عندما نما الكتان بحيث لم يعد فى وسع الطيور أن تقلعه بأظافرها ولا بمناقيرها ، رأت أن الوقت قد فات لمنع الخطر الذى يهددها ، وندمت على أنها لم تستجب من قبل لنصيحة السنونو لكن الندم قد جاء ، ولات ساعة مندم ، وقبل هذا ، حين رأى السنونو أن بقية الطيور لا تريد أخذ الحيطة من الضرر الذى سيجينها ، ذهب إلى الفلاح ، واحتمى بحمايته ، وأخذ الحيطة لنفسه ولبقية فصيلته ، ومنذ ذلك الحين تعيش طيور السنونو آمنة فى دار الفلاح ، أما بقية الطيور التى لم ترد الحيطة من الخطر فقد صادها الرجل كل يوم بحبائله وشباكه .

فيا سيدى القونت : إذا أردت أن تحتمى من خطر قد يحدث لك ، فاحترس ، وخذ حذرك قبل أن يجئ ، لأنه ليس بالرجل اليقظ من يرى الأشياء حين حدوثها بل من يعرف الضرر بالتخمين أو بالإشارة ، ويمنعه أن يحدث قبل وقت كاف .

راق للقونت كثيرا تلك النصيحة ، وعمل بها بنجاح كبير . ورأى القونت هذه الحكاية حسنة ، فضمها إلى كتابه وشفعها بهذه الأبيات :

لكى لا تصل الأضرار إلينا علينا فى البداية أن نجتثها من جذورها .

الحكاية السابعة

ما حدث لدونيا تروخانا

مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره قائلا له :

- باترونيو : نصحني رجل أن أصنع شيئا ما ، ولم يقل حتى الآن لي كيف أستطيع صنعه ، وإني أؤكد لك أنه شيء نافع جدا وإذا أراد الله أن تكون عاقبته كما قال لي ، فسيكون ذلك صالحا لي جدا وتكون الفوائد يعقب بعضها بعضا ، وبهذه الطريقة في النهاية تكون الفائدة جليلة .

- حكى القونت لباترونيو ماهية هذا الصنيع ، وحين انتهى أجابه باترونيو :

- سيدي القونت ، دائما سمعت من يقول إن من الفطنة أن نرتبط بالواقع ، وليس بالخيال ، ففي كثير من الأحيان يحدث لمن يثقون بالخيال ما حدث لدونيا تروخانا .

- سأل القونت : وكيف كان ذلك ؟

- قال باترونيو : سيدي القونت : كان ثمة سيدة تدعى دونيا تروخانا ، أقرب إلى الفقر منها إلى الثراء ، ذهبت ذات يوم إلى السوق تحمل فوق رأسها جرة من العسل . أنشأت تفكر وهي في الطريق أنها سوف تبيع تلك الجرة من العسل وتشتري بثمنها مجموعة من البيض ، تخرج منها الدجاج ، وبعد ذلك تشتري بثمن الدجاج الذي تبيعه غنمات .

وهكذا ذهبت تشترى بالأرباح حتى رأت نفسها أغنى من كل جاراتها ، بعد ذلك فكرت فى أنها بهذه الثروة عليها أن تزوج صبيانها وبناتها ، وتذهب مصحوبة فى الشارع بأزواج بناتها وزوجات أبنائها ، وتسمع الناس محتفية بحظها العظيم ، الذى حظيت به فى الثراء الواسع بعد أن كانت فقيرة من قبل .

مفكرة فى هذا شرعت فى الضحك من النشوة التى سرت فى جسدها ، وعند الضحك لطمت بيدها جبهتها فسقطت الجرة على الأرض ، وتهشمت جذاذا ، حين رأت الجرة مشهمة ، بدأت تندم على ما ضاع منها بسبب الذى فكرت فيه واستطاعت تحقيقه ، لو لم تتحطم الجرة ، وبهذه الطريقة ولأنها وثقت فى خيالها ، لم تحقق شيئا مما كانت تريد .

فيا سيدى القونت إذا أردت الأشياء التى يتحدثون بها إليك ، وفكرت فى أن تكون واقعا ذات يوم ، فانظر مليا فى أن تكون ممكنة التحقيق ولا تكون وهما ، مشكوكا فيها ، وباطلة ، وإذا أردت أن تحاول شيئا فتحفظ جدا فى المغامرة بشىء تراه بالانتظار الموهوم مكافأة لم تتحقق منها .

راق للقونت كثيرا ما قاله باترونيو ، وصنع ما أشار عليه به ، وكانت عاقبته حسنة ، وأعجب دون خوان بهذا المثل وأمر بضمه إلى كتابه مشفوعا بهذه الأبيات :

ثق فى الحقيقة بالتما
والعدل عن الأوهام ..

الحكاية الثامنة

ما حدث لرجل اضطر الأطباء إلى غسل كبده .

مرة كان يتحدث القونت لوقانور إلى باترونيو مستشاره قائلا له :

- باترونيو : أنت تعلم أنه بالرغم من أن الله منحنى من جوانب كثيرة نعما شتى ، فإنى فى هذه اللحظة أجدنى مفتقرا إلى المال . وإن كان الحصول عليه يبدو لى عسيرا جدا مثل الموت فإنى أعتقد أنه على أن أبيع إحدى الضياع التى أحبها جدا ، أو أعمل شيئا آخر يؤلمنى عمله مثل هذا . وبصنع ذلك فقط أخرج من الاختناق والأزمة التى أنا فيها ، وبالتحديد فى حالة الاستعداد لإتمام الأمر الذى أنوء به ، يأتى إلى أناس أعرف أنهم لا يحتاجون يطلبون منى مالا . وبالثقة التى أوليها لإدراكك الذى وهبكه الله أرجوك أن تقول لى ما تعتقد أنه يجب على صنعه .

- قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : يبدو لى أنه يحدث لك مع هؤلاء الناس ما حدث لرجل شديد المرض .

- سأل القونت : وماذا حدث له ؟

- قال باترونيو : سيدى القونت : كان ثمة رجل مريض جدا ، قال له الأطباء إنه لا أمل فى شفائه إن لم يجروا له عملية فى جنبه ، وإخراج كبده وغسله بالأدوية ، وإبرائه مما ألم به من مرض ، وحين كانوا يجرون العملية والكبد فى يد

الجراح ، كان رجل بجانبه يطلب أن يعطوه قطعة من تلك الكبد ليطعمها لقطه .

فيا سيدى القونت لوقانور ، إذا أردت أن تضن نفسك بإعطاء المال لمن تعرف أنه ليس محتاجا إليه ، فيمكنك عمل ذلك ، لكن بدون نصيحة منى .

راق للقونت كثيرا ما قاله باترونيو ، وقرر أن يعمل بما قاله من الآن ، وكانت العاقبة طيبة ، ورأى دون خوان أن هذه الحكاية حسنة ، وأمر بضمها إلى هذا الكتاب ، مشفوعة بهذه الأبيات :

من لا يعرف ما ينبغى أن يعطيه للناس
عليـــــه أن يتـــحــــــمل الألم

الحكاية التاسعة

ما حدث لحصانين مع الأسد

فى أحد الأيام قال القونت لوقانور لباترونيو مستشاره :

- باترونيو : لى منذ أمدبعيد عدو ألحق بى ضررا بالغا مثلما ألحقت به أنا ، بطريقة نحن بها فى شقاق بعيد ، وحدث الآن أن شخصا أخر أشد منا قوة نحن الاثنين ، شرع يفعل لنا بعض الأفعال ، نخشى كلانا أن تلحق بنا أضرارا بالغة ، اقترح على عدوى أن نتصالح لكى ندافع عن أنفسنا ، فإذا اتفقنا نستطيع الدفاع ، بينما إذا اختلفنا استطاع أن يهدم واحدا تلو الآخر بسهولة ، ولست أدرى ما هو الحل ، لأنى أخشى - من جهة - أن يكون عدوى يريد خداعى ، وإذا اصطلحنا وثق كل منا فى أخيه الأمر الذى يمنحه فرصة أن يتمكن منى ، أو يقتلنى ، ومن جهة أخرى فإنى مقتنع إذا لم نتصالح يمكن أن يلحق بنا ضرر شديد بسبب ما أقوله لك ، ومن أجل الثقة التى أوليكها ، ولحسن رأيك ، أرجوك أن تقول لى ما يبدو لك .

- قال باترونيو : سيدى القونت : الأمر عسير ، ويروق لى كي تفهم ما هو الصالح ، أن تعرف ما حدث لفارسين من معية الأمير دون إنريكى فى تونس .

- طلب القونت أن يقص عليه الأمر .

- شرع باترونيو : سيدى القونت : كان ثمة فارسان

فى معية الأمير دون إنريكى فى تونس ، كانا صديقين حميمين يعيشان معا ولم يكن لدى هذين الفارسين سوى حصانين ، وككل المالكين يرعون حيواناتهم كما ينبغى يهملونها أيضا ، ولم يكن الفارسان فى ثراء يسمح لهما بمأوى خاص لكل حصان ، ولكنهما أيضا وبسبب عداوة حصان لأخيه لم يقتسما المأوى ، الأمر الذى صار مثار حقد شديد ، وحين مضى بعض الزمن ، اقتنع الفارسان أن الأمر صعب ولا حل له فأخبروا الأمير بذلك ، وطلبا منه أن يجاملهما بأن يطرح الحصانان لأسد فى حوزة ملك تونس . تحدث الأمير دون إنريكى إلى الملك الذى أجزل لصاحبى الحصانين الثمن وأمر الملك أن يوضع الحصانان فى ساحة هناك حيث يعيش الأسد ، حين رأى الحصانان أنهما وحدهما فى الساحة ، إذ أنه حتى ذلك الحين لم يكن قد خرج الأسد من قفصه المغلق ، تواثبا بعنف ، وحين احتدام المواجهة ، فتحوا باب الأسد وحين خرج ، بدأ الحصانان فى الارتجاف ، واقترب كل منهما من الأسد بشدة ، حين اقتربا بقيا لحظة ساكنين ، ثم اتجها معا نحو الأسد ، يوسعانه ركلا وعضا ، مما اضطره إلى الدخول فى قفصه مرة أخرى . ومنذ ذلك الحين غدوا صديقين حميمين ، يأكلان معا بلذة فى المذود نفسه ، وينام كلاهما بجانب الآخر ، ولقد تولدت تلك الصداقة لديهما من الخوف الذى بثه فيهما الأسد .

فيا سيدى القونت لوقانور ، إذا كنت تعتقد أن عدوك هذا يخشى من عدوكما المشترك ، ويحتاج إليك لأنه يدرك أنه وحده وبمعاونتك يستطيع الدفاع ، هذا إلى درجة نسيان الضرر الذى ألحقته به ، مفكرا بنفس الطريقة التى فكر بها الحصانان ، حيث اقتربا إلى درجة فقدانهما الإحنة المتبادلة ، واثقا كل منهما فى الآخر ، فأنت منته إلى استلهام الثقة فى عدوك ، وفقدان الخشية منه . وإذ كنت فى الحال وجدت فيه خصالا طيبة ، ووفاء الأمر الذى يجعلك - خلقيا - واثقا - بحيث لا يحدث فى أى وقت ، لأنك واثق فيه - أن يلحق بك أى ضرر فإنك تعمل صالحا بمساعدته ، وأن تحميه لئلا يحطمكما ثالث ، لأننا يجب علينا كثيرا أن نساعد - كما يجب علينا أيضا أن نتشابه برغم الاختلاف - مع أقاربنا ، وجيراننا ، لكى نحتمى بهم ضد الأغراب . وإذا كنت ترى أنك إذا ساعدته ، وخرج من الخطر بهذه المساعدة ، وأمن جانبه فيعود ضدك ، الأمر الذى يجعلك لا تثق فيه ، فإنك تعمل عملا سيئا بمساعدته ، بل عليك الابتعاد عنه ، مرتئيا فى هذا الضيق عدم التخلى عن سوء النية التى يضمرها لك قبلا ، منتظرا الآن أن تسمح له الظروف بإلحاق ضرر بك ، فلا يجب أن تساعده بأى وسيلة للخروج من الخطر المحدق به .

راق للقونت كثيرا ما قاله له باترونيو ، مرتئيا أنه قدم إليه نصيحة حسنة ، ورأى دون خوان أن الحكاية طيبة

فأمر بضمها إلى كتابه هذا ، وشفعها بهذه الأبيات :

في حالة احتمائك من أضرار أخرى

حاذر ألا تجيئك من الغرباء"

الحكاية العاشرة

ما حدث لرجل كان يأكل الترمس لشدة فقره ولعدم وجود ما يأكله .

ذات يوم كان يتحدث القونت مع مستشاره باترونيو فقال له :

- باترونيو : أعرف جيدا أن الله أعطانى فوق ما أستحق ، ومع كل هذا لدى رغبة فى أظل راضيا ، إلا أننى أحيانا أجدنى فى حاجة ماسة إلى المال ، لدرجة أننى لا يهمنى أن أهجر الدنيا ، وأرجوك أن تنصحنى لأتخلص من هذا الوضع .

قال باترونيو سيدى القونت لوقانور : لكى تتأسوا حين يصيبكم مثل هذا ، من المناسب أن تقفوا على ما حدث لرجلين كانا سابقى الثراء .

رجاه القونت أن يقص عليه ما حدث .

استهل باترونيو حديثه قائلا : سيدى القونت ، أحد هذين الرجلين برحت به الفاقة إلى حد أنه لم يبق له شىء يتبلغ به ، بذل أقصى جهده ليجد شيئا فلم يجد إلا صفحة من ترمس Altramuces ، وحين تذكر ثراءه السابغ ، مفكرا فى الجوع الذى يقاسيه الآن ، ولا يصادف إلا حبات الترمس الشديدة المرارة ، ذات المذاق الردىء ، أجهش بالدمع ، وإن كان لم يدع التهام الترمس للجوع الذى يمضه ، ويلقى

بالقشر وراءه ، وفيما هوفي لجة هذه الكآبة ، وفي هذا التفكير أحس أن شخصا خلفه ، فأدار برأسه فإذا برجل يأكل قشر الترمس الذى يطرحه علي الأرض هذا الرجل كما قلت لكم كان في السابق واسع الثراء أيضا .

وحين رأى صاحب الترمس سأل آكل القشر لماذا يأكله ؟ فأجابه : إني وإن كنت أغنى منك ، فإني انحدرت الآن إلى درك من العسر ، وشدة السغب إلى درجة أننى سعدت سعادة بالغة حين عثرت على القشر الذي طرحته ، عندما سمع صاحب الترمس هذا تعزي ، إذ رأي من هو أشد منه خصاصة ورأى أن وشائجه بالفقر أقل ، بهذا التعزى جاهد لينسلخ من فقره ، وظفر بعون الله وعاد مرة أخرى إلى سالف غناه .

إذن يا سيدي القونت لوقانور عليكم أن تعلموا أنه لا أحد في الدنيا يملك كل شيء كما قدر الله ، لكن الله يدلكم على نعمه في كل شيء ، فتحظون بما تريدون ، فإن شحت الدراهم أو ألمت بكم ضائقة فلا تأسوا على ما فاتكم ، بل اعلموا يقينا أن آخرين أغنى منكم ، وفي حالة يسر عظيم قد ألم بهم ما ألم بكم ، ويثلج صدورهم أن لو استطاعوا أن يمنحوا ذويهم ، وإن كان أضال مما تمنحونه لذويكم .

فسر القونت كثيرا بما قص عليه باترونيو ، وتعزى وجاهد ، فانسلخ مما هو فيه - بعون الله - من العوز الذى طاف به واذ رأى دون خوان هذه الحكاية حسنة ضمها إلى

كتابه وختمها بهذا البيت من الشعر:

لا تقنطن أبدا من الفقر
فهناك أسوا منك فى العسر

الحكاية الحادية عشرة

« ما حدث لأسقف سانتياجو مع دون إليان ساحر طليطلة »

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مسستشاره قائلا له :

- باترونيو : جاءنى رجل يرجونى أن أساعده فى أمر ما يحتاجنى فيه ، واعدا إياى أن يقدم لى فيما بعد كل ما فى ذرعه ، شرعت فى مساعدته بكل ما أستطيع وقبل أن يحصل على ما يتطلع إليه ، وإن كان مطمئنا للحصول عليه - طلبت منه شيئا صالحا لى لو فعله ، بيد أنه رفض ، ولست أدرى لأى سبب ، ثم طلبت منه شيئا أخر نافعا لى ، فعاود الرفض ، الذى كرره فى كل شئ طلبته منه ، لكنه حتى الآن لم يحصل على كل ما يتطلع إليه ، ولن يحصل عليه إن لم أساعده ، وللثقة التى أوليكها ، ولحسن رأيك أشكرك إن نصحتنى بما يجب صنعه .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت : لكى تستطيع أن تفعل ما ينبغى ،من المناسب أن تقف على ما حدث لأسقف سانتياجو مع دون إليان ، ساحر طليطلة .

- سأله القونت : وكيف كان ذلك ؟

- قال باترونيو : سيدى القونت : كان أحد أساقفة سانتياجو يرغب بشدة فى معرفة فن السحر ، ولأنه سمع

عن دون إليان الطليطلى الساحر الذى لا ينافس فى تلك الفترة ، فقد ذهب إلى طليطلة ليدرسه معه ، وحين وصل إلى طليطلة ذهب لتوه إلى منزل الأستاذ ، فوجده يطالع فى قاعة فسيحة ، حين رآه يدخل قابله الأستاذ بترحاب شديد ، قائلا له إنه لا يريد منه أن يشرح له سبب مجيئه قبل تناول الطعام ، مبديا له تقديرا ، وأسكنه فى دا ره ، وأعد له ما هو لازم لراحته ، قائلا له إنه يسعد جدا بوجوده معه . وبعد الطعام جلسا منفردين ، وقص عليه الأسقف سبب حضوره ، راجيا منه بتلطف شديد أن يعلمه فن السحر الذى يرغب بشده فى دراسته بعمق ، فقال له دون إليان إنه أسقف ، ورجل ذو منصب فى الكنيسة ، وفى وسعه مستقبلا أن يرقى إلى مناصب عليا ، والذين يرقون الدرجات العلى ، حين يحصلون على ما يتطلعون إليه ينسون حالا ما قدمه لهم الآخرون ، وهو الأمر الذى يخشاه أنه إذا تعلم ما يريد ، فلن يشكر ، ولن يصنع له ما يعده به الآن . فأكد الأسقف أنه مهما ارتقى من مناصب فلن يصنع إلا ما يأمره به الساحر . وظلا يتحدثان فى هذا الأمر من بعد الغداء حتى وقت العشاء واتفقا ، وقال له الأستاذ إن هذا الفن لا يفهم إلا فى مكان منعزل جدا ، وفى تلك الليلة ذاتها سيخبره أين يجب أن يكونا حتى يتعلم ، أخذه من يده ، وذهب به إلى قاعة ، ومنفردين ، نادى على خادم قائلا لها أن تجهز بعض اليمام

للعشاء ، ولكن لا تضعها فى الفرن للشواء إلا بعد أن يأمرها بذلك .

وبعد أن قال ذلك ، نادى على الأسقف ، وولجا إلى سلم حجرى منحوت بدقة ، ونزلا كثيرا إلى درجة أن بدا له أن نهر التاجه لابد أن يمر من فوقهما ، حين وصلا إلى آخر درجات السلم أشار الأستاذ إلى بعض الحجرات الفسيحة جدا ، وإلى قاعة مؤثثة أثاثا جيدا ، وفيها كتب كثيرة ، حيث يدرس . ولم يكادا يجلسان ، ويختاران بعض الكتب حيث يبدأن الدرس دخل رجلان ، سلما الأسقف رسالة ، فيها أن عمه رئيس الأساقفة مريض جدا ، وإذا كان يريد أن يراه وهو بقيد الحياة ، فليذهب عاجلا إلى سانتياجو ، اغتم الأسقف كثيرا لمرض عمه إذ أن عليه أن يدع الدرس الذى شرع فيه لكنه ارتأى عدم ترك الدرس بهذه السرعة ، وكتب إلى عمه كتابا يرد فيه على كتابه ، وبعد ثلاثة أيام أو أربعة ، وصل رجال آخرون مشاة ومعهم رسائل إلى السنيور الأسقف يخبرونه فيها بوفاة عمه رئيس الأساقفة وفى الكاتدرائية اتفقوا جميعا على اختياره وارث عمه ، وثقة فى رحمة الله أن يكون هو رئيس الأساقفة ، ولكل هذا من الأفضل ألا يتعجل بالذهاب إلى سانتياجو ، إذ من الخير أن يختاروه وهو بعيد ، لا أن يكون فى الأسقفية .

بعد سبعة أيام أو ثمانية جاء إلى طليطلة تابعان فى

لباس حسن ، وبأسلحة جيدة ، ومعهما حصانان ، حين وصلا إلى الأسقف قبلا يده ، وسلماه الرسائل التى تنبئه باختياره رئيس أساقفة .

حين دخل دون إليان ، ذهب إليه رئيس الأساقفة المختار قائلا له ، إنه يحمد الله كثيرا أن جاء إليه هذا النبأ الخير وهو فى داره ، وقد وضعه الله رئيس أساقفة ، فطلب منه دون إليان أن يتفضل ويعين ابنه فى منصب الأسقف الشاغر ، لكنه أجابه إن هذا المنصب كان قد وعد به أخاه ، بيد أنه وعد أن يمنح ابنه مكافأة له منصبا آخر سيكون مسرورا به ، وطلب منه أن يصحبه إلى سانتياجو وأن يحمل معه ابنه ، فوافق دون إليان .

ذهبوا إلى سانتياجو ، حيث استقبلوا بحفاوة بالغة ، وبعد مرور فترة هنالك ، جاءت رسل البابا ذات يوم تحمل رسائل إلى رئيس الأساقفة ، حيث يقول له فيها إنه عينه كاهنا فى تولوزا ، وقد خوله الفضل أن يعين فى مكانه من يشاء ، حين علم دون إليان ، طلب منه بتلطف شديد أن يعين ابنه فيه ، مذكرا إياه بالوعود التى قطعها على نفسه ، وبما حدث قبل ذلك ، لكن رئيس الأساقفة رجاه مرة أخرى أن يتسامح لأنه عين فى منصبه عما له ، فأجابه دون إليان - وإن كان غير مقتنع - أن يفعل هذا ، نظرا لأنه سيعوضه مستقبلا ، فعاد رئيس الأساقفة يعده وعودا حقة كثيرة أنه

سيفعل هذا ، ورجاه إذا ذهب معه أن يحمل ابنه .

حين وصلوا إلى تولوزا استقبلوا بحفاوة شديدة من قبل القونتات ومن وجوه الناس فى ذلك الإقليم ، بعد مرور عامين فى تولوزا جاء إلى الكاهن رسل من البابا ، تقول له إن البابا نصبه كاردينالا مخولا إياه أن ينصب فى مكانه من يريد ، فذهب إليه دون إليان قائلا له ، ها أنت ترى فى مرات كثيرة لم تف بوعودك لى ، وليس الوقت وقت تسويف ، بل وقت منح منصب الكاهن الشاغر لولدى . فرجاه الكردينال ألا يسىء به ظنا فإن هذا المنصب الشاغر لخالى ، وهو رجل طاعن فى السن ، وذو خصال حسنة . لكنه وقد وصل إلى درجة الكاردينال فسوف يصحبه إلى العاصمة الرومانية ، وسوف يجد هناك مناسبات حسنة لصنع الجميل معه . ندم دون إليان كثيرا ، لكنه وافق ، وذهب إلى روما فى معية الكاردينال .

حين وصلوا إلى هناك استقبلهم الكرادلة ، وروما كلها ، قضوا هناك زمنا طويلا ، وكل يوم يرجوه دون إليان أن يصنع لابنه جميلا ، وهو يعتذر إليه حتى مات البابا فاجتمع الكرادلة واختاروا الكاردينال بابا ، ذهب إليه دون إليان قائلا له إنه فى هذه اللحظة لا يستطيع تقديم أية حجج لإنجاز ما وعده به . فأجابه البابا ألا يضيق عليه الخناق كثيرا ، وسوف يكون ثمة مكان لصنع الفضل معه فى

موضعه المناسب . ندم دون إليان كثيرا ، مذكرا إياه بالوعود التي قطعها على نفسه ، ولم ينجزها ، وأضاف إن هذا كان يخشاه من أول مرة رآه فيها وها هو الآن قد وصل إلى أعلى المناصب ولم ينجز عدته معه ، فليس عليه أن ينتظر منه شيئا ، الأمر الذى أزعج البابا كثيرا ، فبدأ يسبه ، متوعدا إياه إنه إذا ضيق عليه الخناق أكثر فسيسجنه ، إذ يعرف جيدا أنه كان ملحدا ، وساحرا ، وليس له عمل آخر فى طليطلة سوى أن يعلم فن السحر .

حين رأى دون إليان المكافأة التى قدمها له البابا ، استأذنه فى الرحيل ، دون أن يرغب هذا حتى فى تزويده بالطعام خلال الطريق . فقال دون إليان للبابا : بما أنه ليس لديه ما يطعمه فعليه أن يعيد اليمام الذى كان قد أمر بشيه فى تلك الليلة ، فنادى المرأة وأمرها بشى اليمام . عندما قال دون إليان هذا وجد البابا نفسه فى طليطلة وهو أسقف سانتياجو كما كان لحظة وصوله ، فخجل كثيرا مما حدث حتى لم يعرف وسيلة للاعتذار . فقال له دون إليان ليذهب فى سلام فقد عرف ما يمكن أن يأمله فيه ، ويبدو له أن من الإسراف غير المفيد أن يدعوه إلى أكل اليمام معه .

فيا سيدى القونت لوقانور أنت رأيت أن ذلك الشخص الذى قدمت إليه الكثير ويطلب منك المساعدة ولا يشكر الصنيع ، فلا تعن نفسك أكثر ، ولا تخاطر بأن تجعله يصعد

إلى منصب ، منه يكافئك بنفس المكافأة التى قدمها ذلك الأسقف إلى ساحر طليطلة .

رأى القونت هذه النصيحة حسنة ، فعمل بها ، وكانت عاقبتها طيبة ، ورأى دون خوان هذه الحكاية حسنة فضمها إلى كتابة مشفوعة بهذه الأبيات :

من لا يشكر لك مساعدتك له
فلن يساعدك إذا ارتقت به الحال

الحكاية الثانية عشرة

الثعلبة والديك

تحدث ذات مرة القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره قائلا له :

- باترونيو : أنت تعرف - ولله الحمد - أن إقطاعياتى كثيرة ، لكنها منعزلة واحدة عن الأخرى ، وبالرغم أن لدى أماكن منها شديدة القوة ، فإن لدى أيضا بعضها أقل قوة ، ، وبعضا آخر منها بعيد جدا ، وعندما أدخل معركة مع سادتى - وهم الملوك - أو مع جيران أقوياء ، كثيرون ممن يدعون أصدقائى أو يريدون نصيحتى يخوفوننى ، قائلين لى إنه لا يمكن لى بأى حال أن أظل فى الأماكن القصية ، بل على أن أكون فى الأماكن الأشد قوة ، وهى فى وسط أملاكى ، ولأننى أعرف أنك شديد الوفاء ، وشديد الفهم ، لكل هذه الأمور أرجوك أن تنصحنى بما يبدو لك أنه يجب على صنعه .

- قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : فى الأمور الخطيرة والهامة تصعب النصيحة جدا ، فإن أفضل النصائح يمكن أن تكون خطأ لعدم معرفة ما يعقب ، إذ أنه فى مرات كثيرة نرى أننا ننتظر شيئا ، ويحدث شئ آخر ، وما نخشى أن يكون سيئا إذا به يكون حسنا ، وما ننتظر أن يكون حسنا إذا به يكون سيئا أحيانا ، ولهذا فإن من ينصح إذا كان رجلا وفيا ويريد الإصابة فى الرأى ، نراه فى مأزق خطير ،

فإنه إذا كانت عاقبة النصيحة حسنة لن يشكر أكثر من أن يقال إنه أدى واجبه فى بذل النصيحة ، وإذا كانت العاقبة وخيمة فسوف يلحقه شين ، لهذا كله ، يروق لى أن أتخفف من بذل النصيحة فى أمر يحف به ريب كثير ، ومن حيث تنظر إليه تنظر المخاطر ، وبما أنك تود أن أنصحك ، فلست بمستطيع الرفض ، ولذا أود كثيرا أن تعرف ماذا حدث للديك والثعلبة .

- سأله القونت : وكيف كان ذلك ؟

- قال باترونيو : سيدى القونت : كان لرجل باذخ الشرف دار فى الجبل ، يربى فيها - ضمن ما يربيه من حيوانات - دجاج وديكة ، حدث أن ديكا منها سار ذات يوم دون أخذ الحيطة فى الحقل ، بعيدا عن الدار ، رأته الثعلبة ، مضت إليه لتصيده دون أن يراها ، لكن الديك أحس بوجودها فصعد شجرة معزولة بعض الشئ عن بقية الشجر ، حين رأته الثعلبة وقد نجا ، ندمت كثيرا ، فتأملت مليا كيف تستطيع اقتناصه ، اتجهت إلى الشجرة ، وشرعت فى الحديث إليه فى كثير من المداهنة ، طالبة منه أن ينزل للسير عبر الحقل ، كما كان يفعل ، ولكن الديك لم يقبل ، حين رأت الثعلبة أنها لم تخدعه بمداهنتها ، بدأت تهدده قائلة له ، إنه سوف يندم لعدم الثقة فيها ، أما الديك وقد أصبح بنجوة فلم يأبه بأمانها ولا بوعيدها .

حين رأت الثعلبة أن هذه الطريقة لن تخدعه ، اتجهت نحو الشجرة وبدأت تقضم الجذع بأسنانها ، وتضربه بذنبها ، فاهتز الديك كثيرا دون أن يعى أن هذا كله لن يصيبه بأذى ، بيد أن الخوف - مع ذلك ، حمله على الهرب إلى أشجار أخرى رغبة منه أن يكون أكثر أمانا ، دون أن يستطيع الوصول إلى الأشجار المتجاورة ، عاد إلى شجرة أخرى . حين رأته الثعلبة مرعوبا دون سبب ، طاردته ، من شجرة إلى أخرى ، حتى استطاعت ان تقتنصه ، وتأكله .

فأنت ترى ياسيدى القونت لوقانور ، أنك خضت معارك متعددة ، وأدركت الدفاع عما تملك ، فلا يجب أبدا أن تخشى دون سبب ، ولا أن تفزع من الوعيد ولا من أقوال أحد ، كذلك لا يجب أن تضع ثقتك فى أحد يستطيع إيذاءك ، دون أن تعنى نفسك بالدفاع عما هو قاص ، فأمان رجل مثلك حيث لديه جنود ، ومؤن ، بالرغم من الحصن ليس حصينا لن يلحقه خطر . ومع الخوف دون سبب ، تهجرون أحد المواقع النائية مما تملكون ، فتأكد أنهم سوف يسلبونك مواقع أخرى حتى لا يدعوا لك شبرا من الأرض ، لأن أعداءك حين يعرفون أن الخوف يجعلك تترك موقعا ، تشتعل حماسهم ليسلبوك ما لم تفقده بعد وبالطريقة ذاتها حين تكون معنى ، وترى أعداءك فتخور قواك وقوى من معك يصل بك الحال هكذا إلى أن يسلبوك كل شىء . وبالعكس تدافع جيدا عن أول موقع

فلا يتابعون مهاجمتك فى مواقع أخرى . كما حدث بالفعل للديك لو أنه ظل فى الشجرة الأولى التى فر عليها

هذه الحكاية ينبغى أن يحيها كل أولئك المسئولين عن الحصون ، لكيلا يخافوا دون سبب حين يحفرون لهم خندقا ، أو يهاجمونهم من الأبراج الخشبية ، أو بأى عدة من عدد الحرب تلك التى تصلح فقط لإفزاع المحصنين . كذلك أقول لك شيئا آخر لكى ترى مدى يقينى ، ليس هناك حصن يستولى عليه دون الصعود إليه ، أو تقويض الجدار : فإذا كان الجدار عاليا فليس فى ذرعهم الصعود إليه بالسلالم ، ولتقويضه يحتاجون إلى وقت وفضاء ، ولذا فإن كل الحصون التى يستولى عليها إنما يأتى من قبل نقصان شىء لمن فيها ، أو لأنهم يفزعون بلا سبب . أعتقد كذلك أن الناس من أمثالك ، وكذلك الذين لا يخطئون بقوة ضخمة عليهم أن ينظروا مليا أى شىء يبدأون به ، وفقط يقررون صنع شىء واحد ، وحين لا يستطيعون لا يجب أن يعتذروا ، كذلك بعد البدء فيه لا يجب أن تفزعوا من أى شىء فى العالم ، وإن كان لديكم عذر لهذا الفزع ، لأن عمل شىء ممن هم فى خطر ، أفضل لهم أن يختبئوا وهم يدافعون من أولئك الهاربين .

انظر فقط إلى جرو يريد قتل كلب كبير فإنه يظل ساكنا ، ويكشر له عن أنيابه ، ربما يختبىء بينما يهرب الكلب وهو كبير ، فيؤخذ ويقتل فى الحال .

راق للقونت كثيرا ما قاله باترونيو ، وعمل بما قال ، ورأى العاقبة حسنة وبدا لدون خوان حسن هذه الحكاية فضمها إلى كتابه ، مشفوعة بهذه الأبيات :

لا تـفـــــزع أبـدا دون ســـــبـب

بل دافع جيدا عن نفسك كما يدافع الرجال .

الحكاية الثالثة عشرة

ما حدث لرجل كان يصيد الحجل

مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو قائلا :

- باترونيو : بعض الأشخاص المهمين ، وبعض الأشخاص ليس لهم نفس الأهمية يلحقون بى أحيانا الضرر بمالى وحاشيتى ، وعندما يرونني يقولون لى إنهم متضايقون جدا وإنهم لم يصنعوا ذلك معى إلا تحت ضغط الحاجة ، إذ أنهم فى تلك اللحظة لم يستطيعوا عمل شىء آخر ، ولأنى أريد أن أعرف أى وسيلة أتبعها حين تحدث لى مثل هذه الأشياء ، أرجوك أن تقول لى كيف ترى هذا .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور . ما يحدث لك ، وما يشغلك جدا ، يشابه كثيرا ما حدث لرجل كان يصيد الحجل .

- رغب إليه القونت أن يقص عليه القصة .

- قال باترونيو : سيدى القونت . نصب رجل شباكه للحجل ، وحين علقت بها ، وصل إليها ، واثقا أنه سيخرجها ، ويذبحها جميعها ، وبينما كان يذبحها هبت عاصفة شديدة على وجهه ، فدمعت عيناه ، أحد الحجل - وما فتىء حيا - بدأ يقول للحجل الذى مازال فى الشباك :

انظروا يا أصدقائى ، ما يصنع ذلك الرجل ، إنه بالرغم

من ذبحه إيانا ، فإنه يشفق علينا ، ويبكى لهذا .

أحد الحجل وهو أكثر حكمة من ذلك الحجل الذى يتحدث لم يعلق بالشباك ، قال وهو خارج الشبكة :

– صديقى : أحمد الله كثيرا أن حفظنى ، كما أدعوه أن يحفظنى مستقبلا ، وليس هذا الدعاء خاصا بي وحدى بل لكل رفقائى من كل من يريد ذبحى ، أو إيذائى ، ويبدى إشفاقه لهذا .

فيا سيدى القونت لوقانور : تحفظ دائما ممن يريد إيذاءك ، ويقول لك إنه يؤلمه هذا ، لكن إذا كان أحد يؤذيك دون إرادة وكان الألم ، أو الضرر غير شديد ، وهذا الشخص كان قد ساعدك فى مناسبة أخرى ، أو أدى إليك منفعة ، فإنى أنصحك فى هذا الصدد أن تتغاضى ، ما دام ذلك لا يتكرر بصورة كثيرة تنقص من قدرك أو تضر كثيرا بما تملك ، ومن جهة أخرى يجب أن تقاوم بكل شدة حيث يبقى مالك وشرفك فى أمان .

راق للقونت لوقانور تلك النصيحة الحسنة التى قدمها له باترونيو ، وعمل بها ، وكان عاقبتها حسنة ، ورأى دون خوان أن هذه الحكاية جيدة ، فأمر بضمها إلي كتابه وشفعها بهذه الأبيات :

حاول دائما أن تحترس جيدا

ممن يضرك ويبدي لك أسفه لهذا الضرر.

الحكاية الرابعة عشرة

الكرامة التى فعلها سانتو دومنجو وهو يعظ أثناء دفن تاجر .

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور عن بعض شئونه مع باترونيو مستشاره ، قائلا له :

- باترونيو : ينصحنى بعض الناس أن أجمع كل ما أستطيع جمعه من مال ، قائلين إن هذا هو الأصلح لى من أى شيء آخر ، أرجوك أن تقول لى ما تراه فى هذا .

قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : بالرغم من أن كبار القوم يحتاجون حقيقة إلى مال كثير لأمور شتى ، ولكن قبل كل شيء لئلا تدع صنع ما هو مناسب بسبب قلة المال ، ألا تعتقد - مع ذلك - أنه يجب عليك أن تصرف كل همك لتكديس المال بشهوة شديدة ، وألا تفعل لأهلك ، وألا تحفظ صورتك وكرامتك لجمع ما هو ضرورى ، وبطريقة أخرى يحدث لك ما حدث لرجل من بولونيا .

- سأل القونت : وكيف كان ذلك :

- قال باترونيو : سيدى القونت : كان فى بولونيا (بإيطاليا) رجل Lombardo جمع مالا كثيرا دون أن يتوقف يبحث عن الوسائل ، يحاول فحسب أن يجمع الكثير ، ذات يوم مرض الرجل مرضة الموت ، رآه أحد أصدقائه فى تلك الحال السيئة فنصحه أن يعترف لسانتو دومنجو الذى كان

فى بولونيا وبالفعل بعث فى طلبه ، حتى وصل الرسول إلى السانتو ، أدرك أن الله لم يرد أن يتجه ذلك الرجل من عقاب الرب الذى يستحقه بسبب جشعه فلم يرد أن يذهب ، بل أرسل إليه قسيسا آخر ، حين عرف أبناء الرجل أن أباهم سيرسلون إليه سانتودومنجو ، انشغلوا كثيرا ، خائفين أن يأمر السانتو بأن يدفع أباهم ما نهبه فداء روحه ، وأن يبقوا هم بلا شىء . ولهذا حين وصل القسيس قالوا له إن أباهم يعرق ، وفى هذه اللحظة ليس من المناسب أن يتحدث إليه وسوف يبعثون فى طلبه مرة أخرى ، وعلى هذا لم يصنع شيئا مما ينبغى صنعه لخلاص نفسه .

وحين مات الرجل ، وذهبوا لدفنه ، طلبوا من سانتو دومنجو أن يعظ ، ففعل السانتو ، لكن حين وصل إلى الحديث عن الرجل ، تلا تلك الآيات من الإنجيل :

« حيث يكون مالك يكون قلبك » والتفت إلى الناس قائلا :

- أصدقائى ، لكى تروا أى حق كل ما يقوله الإنجيل ، انظروا إلى قلب هذا الرجل ، لتجدوا أنه ليس فى جسده ، بل فى الخزانة حيث يوجد ماله .

فنظر الناس إلى القلب فلم يجدوه فى الجسد ، بل فى الخزانة كما قال السانتو ، وجدوه مليئا بالديدان ، وتفوح منه رائحة لا توجد فى أى عفن فى الدنيا .

فيا سيدى القونت ، بالرغم من أننى قلت لك إن المال مطلوب ، فحاول شيئين اثنين: أولهما أن يكون مجموعا بوسائل مشروعة ، وثانيهما ، لا تحبه حبا جما فتجمعه بما لا يجب ، أو بما تنسى به شرفك ، أو الأفضل جمع ذخيرة من أعمال طيبة بها تحظى بنعمة الله ، وبالذكر الطيب .

راق للقونت كثيرا تلك النصيحة التى قدمها له باترونيو وعمل بها ، وكانت عاقبتها حسنة ، ورأى دون خوان أن هذه الحكاية حسنة، فضمها إلى كتابه هذا مشفوعة بهذه الأبيات

اربح الذخيـرة الحقـة

ولا تهتم بما هو فان

الحكاية السادسة عشرة

ما أجاب به القونت فرنان جونثالث قريبه نونيو لاينيث .

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو قال له :

- باترونيو : تعرف جيدا أننى لست شابا ، وقد صنعت أشياء كثيرة ، أؤكد لك كم يروق لى أن أستطيع الراحة من الآن فصاعدا ، أصيد حين أشاء ، أتريض ، أعيش خاليا من الهموم والمشاغل ، وكما أعلم أنك دائما تشير على جيدا ، فإنى أرجوك أن تشير على الآن ، بما تعتقد أنه يلائمنى أكثر

- أجاب باترونيو : سيدى القونت برغم أنك على صواب كثير فيما قلته فإنه يروق لى أن تقف على ما قاله ذات يوم القونت فرنان جونثالث لنونيو لاينيث .

رجاه القونت أن يقص عليه :

- شرع باترونيو : سيدى القونت : كان القونت فرنان جونثالث قد قطع حياته فى الدفاع عن أرضه ، وبينما هو فى برغش فى راحة وسلام ، قال له نونيو لاينيث إنه من المناسب جدا من الآن فصاعدا ألا يدخل فى حروب ، وأن يستريح ، ويدع جنوده تستريح ، فأجابه القونت أنه لا أحد فى العالم ينشد الراحة ، وأن يعيش فى سلام مع جيرته كما ينشد هو ، لكن معروف جيدا أن المسلمين ، وأهل ليون ،

وأهل نابارا أعداء القشتاليين ، فإذا أراد هؤلاء الراحة ، فإن أعداءهم يهاجمونهم حالا ، وإذا أرادوا التسلى بالصيد بواسطة الطيور الحاذقة على شواطىء « أرلانثون » يركبون بغالا مكتنزة بدلا من الدفاع عن أرضهم ، فإنهم يستطيعون ، لكنهم يقال فيهم هذا المثل القديم : يموت الرجل ، ويموت معه اسمه . وبالعكس إذا نسى القشتاليون التسلى والمتع ، ودافعوا عن حوزتهم ، وزاد شرفهم ، فإنه يقال فيهم : يموت الرجل ولا يموت اسمه . وإذن فسواء الموت حيا بين المتع وبين العمل ، ولا يبدو لى حسناً أن نتحرر من هذا ، وأن نترك العمل بهذه الطريقة ، وبعد الموت لا نحقق اسما .

فيا سيدى القونت ، لابد من الموت ، فلا تدع أبدا حسب رأيى أن تضحى بالمتع ، أو تستريح من العمل الذى يقيم لك ذكرا باقيا .

راق للقونت كثيرا ما قصه باترونيو ، وعمل به ، ورأى عاقبته حسنة ، وبدا لدوان خوان حسن هذه الحكاية ، فأمر بضمها إلى كتابه ، ونظم هذه الأبيات :

إذا كنا نفقد بسبب الراحة والمتعة الاسم الطيب

فإن بعد الموت نبقى بلا ذكر حسن

الحكاية السابعة عشرة

ما حدث لرجل كان شديد الجوع مع من دعوه للطعام لمجرد الدعوة

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو ، فقال له :

- باترونيو : جاء رجل لرؤيتى ، وقال إنه مستعد أن يفعل شيئا مناسبا من أجلى ، لكنه قال هذا بطريقة فهمت منها أنه يسر لو لم أقبل مساعدته ، ومن جهة أخرى فإنه لو فعل ما وعدنى لكان حسنا لى ، لكننى لم أقرر قبوله ، لأنه يفعل ذلك لمجرد العرض ، ولإدراكك الجيد أرجوك أن تقول لى ما تعتقد أنه يجب على فعله .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، لكى تفعل فى هذا الأمر ما يبدو لى مناسبا لك أكثر ، فإنه يروق لى أن تعرف ما حدث لرجل مع رجل آخر دعاه لتناول الطعام .

رغب إليه القونت أن يحكى له ما حدث :

- قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، كان هناك رجل محترم ، وكان ثريا ثم افتقر ، مما سبب له حرجا شديدا أن يطلب من أحد طعاما ، ولذا عانى دائما الجوع الشديد ، ذات يوم وهو مكروب لعدم عثوره على شئ ، مر على بيت أحد معارفه وهو يأكل ، حين رآه صاحب الدار يمر قال له - أداء للواجب - إذا أردت أن تأكل . الرجل الفقير تحت ضغط

الحاجة بدأ يغسل يديه وأجاب بما يلي :

- حقيقة سيدى فلان ، لأنك ألححت كثيرا ، ورجوتنى أن آكل معك يبدو لى أنه من غير الصواب عدم الاهتمام برجائك واحتقار ما عرضته بنية حسنة .

قال هذا ، وجلس يأكل ، وأشبع جوعه ، وغدا مستريحا ، ومن الآن فصاعدا أعانه الله ، ومنحه الوسائل ليخرج من عوزه المدقع الذى كان فيه .

فيا سيدى القونت لوقانور ، أنت ترى أنه يناسبك ما عرضه هذا الرجل ، فأفهمه أنك قبلت أداء للواجب ، ولا تنتظر هل فعله أداء للواجب أم لا ، ولا تنتظر أن يلح أكثر ، وإلا فربما لا يعود للحديث عنه ، ويلزمك مشقة أكثر أن تطلب منه ما يعرضه هو نفسه الآن .

رأى القونت أن هذه المشورة حسنة ، فعمل بها ، ورأى عاقبتها طيبة ، ورأى دون خوان أن هذه الحكاية جيدة ، فضمها إلى كتابه ، ونظم هذه الأبيات :

لا تتردد كثيرا فى قبول
أمر يمكن أن يفيدك

الحكاية الثامنة عشرة

« ما حدث لدون بدرو ميليندث دى بالديس حين هيضت ساقه »

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو فقال :

- باترونيو : تعرف أن بينى وبين جار لى له نفوذ كبير دعوى ، وقد اتفقنا على أن نذهب إلى ضيعة ، والذى يصل أولا تكون من نصيبه ، أيضا تعرف أن أناسى مجتمعون ، وأنا متيقن إذا أعاننى الله أننى أستطيع الذهاب ، وأغنم الضيعة احتمالا ، إلا أننى مشغول جدا أننى لا أتمكن من هذا الفعل لعدم صحتى الجيدة - وبالرغم من أن الضيعة تمثل خسارة ضخمة إذا فقدتها ، فإن ما يشغلنى أكثر ما يقوله الناس ثناء عليه ، وقدحا فى ، ولشفقتى فيك أرجو أن تقول ما يجب على فعله فى تلك المشكلة .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، بالرغم من أنه لا ينقصك الدليل للأسف ، فإنه يروق لى أن تقف على ما حدث لدون بدرو ميليندث دى بالديس وهو يصلح قاعدة لأنماط مماثلة .

طلب القونت أن يقص عليه .

- قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : دون بدرو ميليندث فارس ماجد من ليون ، تعود دائما أن يقول إنه

يعانى تناقضا : « تبارك الله ، فإن ما يفعله خير » ، كان بدرو ميليندث يحظى بمكانة كبيرة لدى ملك ليون إلا أن مستشارين آخرين أعداء له ، مليئين حقدا افتروا عليه ، واتهموه بجرائم كثيرة لدرجة أن الملك عزم على الأمر بقتله ، وفيما كان دون بدرو فى داره وصله أمر من الملك أن يذهب إليه حالا للحديث معه ، والذين أمروا بقتله تربصوا له على فرسخ من داره ، وبينما دون بدرو ذاهب ليركب ، ويرى الملك ، سقط به على الدرج ، فهيضت ساقه . وحين رأى مساعدوه الذين كانوا سيصحبونه ماحل به ، شعروا بالأسف الشديد ، وشرعوا يلومونه على ثقته فى الله بهذه الطريقة :

- ياه ، دون بدرو ، إنك تقول دائما إن ما يفعله الله خير فخذ إذن ما وهبك .

يجيبهم بأن فى ذرعهم التيقن برغم هذه الكارثة ضد قولهم ففى النهاية سيرون أن ما فعله الله خير ، ومهما حاوروه فلن يحولوه عن اعتقاده .

أما الذين كانوا يتربصون به لقتله بأمر الملك ، حين رأوه لم يقدم ، وعرفوا السبب ، فقد ذهبوا إلى الملك ، وقالوا له لماذا لم ينفذوا ما أمرهم به .

قضى دون بدرو ميليندث وقتا طويلا دون استطاعته الركوب ، فى تلك الفترة علم الملك أن اتهامات أعدائه كاذبة ، وبهذا أمر باعتقالهم ، وحين تم هذا ذهب لرؤية دون بدرو

الذى لم يكن يستطيع الحركة وقص عليه كيف إفتروا عليه ، وكيف أمر بقتله ، وطلب منه الصفح ، ووهبه شيئا كثيرا ليعوضه ، ثم أمر - بالمقابل - بإعدام الذين اتهموه زورا فى حضوره ، وبهذا نجى الله دون بدرو ميليندث من أعدائه ، والمفترين عليه ، وكانت كل أقواله حقيقة بأن الله لا يفعل إلا الخير .

فانظر سيدى القونت لوقانور ، لا تأسف على التناقضات التى تعانيها الآن وتيقن فى قلبك أن الله يفعل الخير دائما ، فإذا فكرت هكذا فسوف يخرجك الله منها إلى الخير ، لكن ينبغى أن تعرف أن الأشياء التى يمكن أن تحدث لنا لها وجهان : أحدهما يمكن أن نجد إليه وسيلة والثانى هى الأشياء المناقضة لما لا يمكن أن نصنع لها شيئا . ففى الأشياء التى يمكن أن نجد لها وسيلة ، يجب على الإنسان أن يبحث عن الوسائل دون انتظار أن تتحول بالمصادفة ، أو بإرادة الله ، وهذا نوع من اختبار الله لأن الإنسان له فهم وعقل ويجب عليه أن يفعل كل ما فى وسعه ليتخذ الوسيلة أمام تعاسته ، وبالعكس فى الأشياء التى لا يمكن فعل شئ منها علينا أن نعتقد أن الله يفعلها لخيرنا ، كالمرض الذى حدث لك ، فهو من الأمور التى لا يد لنا فيها ، فتيقن أن ما فعله الله هو للخير ، وليفعل الله أن تكون كل الأمور كما تريد .

رأى القونت أن باترونيو يقول الحق ، وأن نصيحته

حسنة ، فعمل بها وكانت حسنة العاقبة ، واعتقد دون خوان هذه الحكاية جيدة ، فضمها إلى كتابه ونظم هذه الأبيات:

لاتشك مما يفعله الله

فسوف يكون لخيرك

متى أراد

الحكاية التاسعة عشرة

« ما حدث للغربان مع البوم »

كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو ، قال له ما يلي :

- يا باترونيو : لي عدو شديد السطوة ، ومعه في بيته قريب له كان يربيه ، وأحسن الصنيع إليه ، وفي يوم ما تشاحنا ، فأهانه عدوي بالقول والفعل ، الأمر الذي جعل قريبه ، وإن كان عليه أن يحمد فضله ، وهو يرى الإهانة التي وجهها إليه عدوي ، يبحث عن وسيلة للانتقام ، فقدم إلي ، وهذا ما يبدو لي في مصلحتي ، لأن هذا ، وهو يعرف جيدا عدوي في ذرعه أن ينصحني كيف أتشفى من عدوي . وللثقة التي أوليكها لشخصك ولرأيك ، أرجوك أن تقول لي ما تعتقده وما يجب عليه أن أصنع» .

أجاب باترونيو : سيدي القونت لوقانور . في المقام الأول أؤكد لك أن هذا الرجل إنما قدم إليك ليخدعك ، ولكي تدرك جيدا ماذا يريد عمله ، يسرني أن تعرف ماذا حدث للبوم والغربان .

رجاه القونت أن يحكي له :

قال باترونيو : سيدي القونت لوقانور ، كانت حرب ناشبة بين الغربان والبوم ، وكانت الغربان تفقد كثيرا من أفرادها لأن البوم كما تعودت أن تطير في الظلام بينما في

النهار تتخفى فى كهوف يصعب الوصول إليها ، كانت تأتى إلى الأشجار التى تأوى إليها الغربان ، فتقتلها ، أو تجرح الكثير منها ، وإزاء ما حدث تكلم غراب حكيم - وقد أحزنه كثيرا ما يحدث لأقرانه - مع الغربان ونظرائه ، وشرح لهم طريقة الثأر ، وكانت الطريقة كما يلى :

أولا ، تنزع الغربان كل ريش جسمه ، وأن تدع ريشات يسيرة فى جناحيه ، بها يستطيع الطيران قليلا بصعوبة ، بهذه الصورة السيئة مضى إلى البوم ، وحكى لها أن الغربان صنعت به ذلك لأنه نصحها - ضمن نصائحه - ألا تحارب البوم ولهذا فهو مستعد إذا أرادت البوم أن يعلمها كيف تستطيع الانتقام من الغربان ، وأن تفعل بها الأفاعيل .

حين سمعت البوم ذلك فرحت جدا واعتقدت أنها من خلال هذه الوسيلة تحرز النصر ، وأنشأت تعامل الغراب معاملة حسنة جزاء نصحه ، وأن تفصح له عن أسرارها وحيلها .

وكان - مع ذلك - بين البوم ، بومة هرمة جدا ، ولها تجارب كثيرة ، فهمت خدعة الغراب ، فذهبت إلى زعيم البوم ، قائلة له إنها متأكدة من أن هذا الغراب إنما أتى ليقف على ما نصنع ، الأمر الذى لم يكن من الحكمة قبوله فى صحبتك ، إلا أن الزعيم لم يقتنع بقولها ، حين رأت البومة العجوز هذا اعتزلت صواحبها ماضية إلى مكان آخر حيث لا تجدها الغربان ، أما بقية البوم فقد وثقت بالغراب

حين نما ريش جناحى الغراب قال للبوم إنه الآن يستطيع الطيران ، وهوذاهب للبحث عن الغربان ثم يجئ ليخبرها بمكان الغربان حتى تقضى البوم عليها تماما ، فسرت البوم بذلك ، حين وصل إلى الغربان مجتمعة ، أخبرها بما تصنع البوم فذهبت الغربان إليها بالنهار حيث لا تطير البوم ، وفى الوسع الانقضاض عليها ، فقتل الغربان منها الكثير وانتصرت عليها وقد حدث هذا للبوم لثقتها فى الغراب وهو العدو التقليدى لها .

سيدى القونت لوقانور ، إنك تعرف أن ذلك الرجل الذى قدم إليك إنما هو قريب لعدوك ، وعدوك قريب له أيضا ، وبما أنهما من أصل واحد فلا يمكن بحال أن تبقيه معك ، وفى وسعك التأكد من أنه لم يأت إليك إلا لخداعك وإيلامك ، لكن إذا كان يريد أن يخدمك وهو بعيد ، حيث لا يمكنه إلحاق ضرر بك ، ولا الوقوف على ما تصنع ، فإنه يمكنه أن يلحق الضرر الكثير بعدوه وهو قريبه حيث لا يمكنه التصالح معه أبدا ، فى هذه الحالة فقط فى وسعك الثقة به ، لكن دائما على طريقة ألا يستطيع أن يدرك أبدا .

رأى القونت أن هذه نصيحة حسنة ، وعمل بها ، ورأى عاقبتها طيبة ، ورأى دون خوان أن هذه حكاية جيدة ، فضمها إلى كتابه وذيلها بهذه الأبيات :

لا تثق فى صاحب عدوك أبدا

الحكاية العشرون

« ما حدث لملك مع رجل قال له إنه يعرف صناعة الذهب ».

ذات يوم كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو فقال له ::

- باترونيو :: جاء رجل لرؤيتى ، وقال لى إنه يستطيع أن يزودنى بقدرة فائقة ، وبثروات ضخمة ، لكن على أن أقدم له بعض المال لكى يبدأ ، وسوف يعطينى عشرة أمثال ، ولإدراكك الذى منحك الله إياه ، فإننى أرجوك أن تقول لى ما يبدو لك مناسبا لى .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، لعمل ما هو مناسب لك ينبغى أن تعرف ما حدث لملك مع رجل قال له إنه يعرف صناعة الذهب .

- سأله القونت : وكيف كان ذلك .

- قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، كان هناك صعلوك شديد الخصاصة ، ولديه طموح كبير أن يصير ثريا ، لكى يعتق من المسغبة التى يحياها ، هذا الصعلوك نمى إليه أن هناك ملكا ليس على قدر كبير من الذكاء ، ويعالج الكيمياء أملا أن يصنع الذهب ، وحين عرف هذا ، أخذ مائة دوبل ، وخلطها بالتراب ، مع عناصر أخرى ، وصنع مائة قطعة ، كل قطعة تحتوى على قطعة من الدوبل ، حملها وولى

وجهه شطر المدينة حيث يعيش الملك ، لابسا ثياب رجل مهم ، دفعها إلى عطار ، وباعها له كلها باثنتين أو ثلاث دوبلات ، وأعلمه الصعلوك أنها تصلح لأشياء كثيرة ، لكن قبل كل شيء لصناعة الذهب ، كذلك سأله العطار عن اسمها ، فقال له الصعلوك : إنها طبردية

قضى الصعلوك وقتا في تلك المدينة ، متخذا سمت رجل منزو ، وبين الفينة والفينة يقول لأحد الأشخاص في سرية إنه يصوغ الذهب ، وحين وصلت تلك الأنباء إلى مسامع الملك سأله هل تلك الأخبار صحيحة .

حاول الصعلوك في بادئ الأمر أن ينفي ، لكن في النهاية أفهمه أنه يعرف تلك الصناعة ، كما قال له أيضا إنه ينبغي ألا يثق في أي شخص ، وألا يغامر بمبلغ كبير ، لكن إذا أراد فإنه يجرب أمامه ، ويعلمه بما عرفه ، شكره الملك كثيرا ، مقتنعا بما سمعه من أنه لاخداع ، حينئذ أمر الصعلوك بإحضار الأشياءالتي قال إنه يحتاجها ، وهي أشياء عادية جدا ، فضلا عن كرة الطبردية ، هذه الأشياء رخيصة جدا ، حين أحضروها ، صهروها أمام الملك ، فخرج ما قيمته دوبلة ، حين رأى الملك الدوبلة التي تكلفت مالا يسيرا ، سر كثيرا واعتبر هذا الرجل أسعد إنسان في العالم ، وقال للصعلوك إنه يبدو له شخصا جزيل الشرف ، إذا صنع ذهبا أكثر ، فرد عليه الرجل بصورة تلقائية :

- سيدى ، لقد أظهرت لك مدى علمى ، ومنذ الآن فصاعدا يمكنك أن تصنع ما أصنع جيدا ، لكننى أنبهك إذا نقص شىء من تلك العناصر فلن تحصل على شىء .

وعندما قال ذلك ، ودع الملك ومضى إلى داره ، جرب الملك بنفسه صناعة الذهب ، مضاعفا العناصر ، فخرجت دوبلتان ، فعاود المضاعفة فخرجت أربع دوبلات ، بهذه الطريقة وثق أن مضاعفة العناصر تضاعف الذهب ، عندما رأى الملك أن فى وسعه صناعة الذهب الذى يريده ، أرسل فى طلب العناصر اللازمة لصناعة ألف دوبلة ، لكنهم برغم عثورهم على كل العناصر إلا أنهم لم يعثروا على الطبردية ، حين رأى أنه لا يستطيع صناعة الذهب لنقص الطبردية أرسل فى طلب الذى علمه صناعة الذهب ، وأخبره بما حدث ، فقال الصعلوك هل لديك كل العناصر التى أوصيت بها ، فأجابه الملك ينقص فقط الطبردية ، قال الصعلوك عليه أن يتذكر منذ البداية تنبيهه أنه إذا نقص عنصر فلن يمكن صناعة الذهب ، سأله الملك هل تعلم فى أى بلد توجد هذه الطبردية ؟ فأجابه نعم ، حين سمع الملك ما قاله أمره أن يذهب لإحضار ما هو ضرورى لصناعة الذهب الذى يريده ، أجاب الصعلوك برغم أن أى واحد يمكنه أن يقوم بهذا العمل مثلى وربما أفضل منى ، فإننى فى خدمتك للذهاب لإحضاره ، فإنه كثير فى بلده ، حينئذ حسب الملك تكاليف الرحلة ، وكذلك الطبردية ، فخرج

الحساب كثيرا ، حين قبض الصعلوك المبلغ ذهب من عند الملك دون أن يعود أبدا إلى الملك الذى خدع لقلة فطانته ، وعندما رأى الملك كل هذا التأخير أرسل إلى داره يسأل هل لديهم أنباء عنه ، لكنهم وجدوا فقط صندوقا مغلقا ، وعند فتحه رأوا رسالة موجهة إلى الملك تقول ما يلى :

- يمكنك التأكد تماما من أن الطبردية لا وجود لها ، لقد خدعتك ، حين قلت لك إنك ستكون غنيا ، كان عليك أن تجيبنى أن أغنى نفسى أولا وبهذا تعتقد فى كلامى .

بعد أيام قلائل كان ثمة رجال يضحكون ويسخرون ، فخطر لهم أن يسجلوا أسماء كل معارفهم ، طائفة الشجعان ، وطائفة الأغنياء ، وطائفة العلماء ، وكل الطوائف ذات القيمة ، وعندما وصلوا إلى قائمة الحمقى وضعوا اسم الملك فى مستهلها ، حين عرف الملك ، ناداهم ، وأمنهم ألا يصيبهم مكروه ، وسألهم لماذا وضعوه فى قائمة الحمقى ، فأجابوه لأنه أعطى من لا يعرف مالا كثيرا ، فقال لهم الملك لقد أخطأتم ، لأن ذلك الرجل إذا حضر فلن يبقى أحمق ، فقالوا له إذن فى تلك الحالة لن ينقص عدد الحمقى ، لأن ذلك الرجل إذا حضر نحذف اسم الملك من القائمة ونضع بدلا منه اسم الرجل .

- فيا سيدى القونت لوقانور ، إذا أردت ألا يظن بك الآخرون الحمق فلا تغامر بما هو مظنون ، فتندم ، ولا تخاطر بفقد شىء غير متيقن أملا فى فائدة كبيرة

سر القونت بهذه النصيحة ، وجربها ، وكانت عاقبتها حسنة ، وحين رأى دوان خوان أن هذه الحكاية حسنة ضمها إلى كتابه مشفوعة بهذه الأبيات :

لا تخاطر أبدا بثروتك

عملا بنصيحة من يحيا فقيرا

الحكاية الحادية والعشرون

ما حدث لفتى مع حكيم كبير ، كان والده أوصى إليه به.

مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو قائلا :

- باترونيو : لدى قريب أحبه كثيراً ، مات وترك ولدا صغيرا ، ربيته أنا ، لقرابتى له ، وحبى الذى كان يربطنى بأبيه ، ولأننى أنتظر من الولد عونا كبيراً ، حين يصل إلى السن التى يمكنه فيها هذا العون ، وقد عنيت بتربيته ، واليوم - يعلم الله - أننى أحبه كأحد أولادى ، الولد ذكى جدا ، وأنتظر أن يصير رجلا مفيدا ، ومع ذلك أخشى أن يخدعه الصبا كما يخدع كثيرين من سنه ، لا أدعه يرى منهم ما هو غير مناسب ، فينخدع الفتى الذى ربيته ، ولأنه يروق لى ألا يحدث له ما أخشى ، أرجوك - للوذعيتك - أن تقول لى ما ينبغى أن أصنعه ليفعل الفتى دائما ما هو صالح لصحته ، وما هو مفيد لثروته .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، لكى تستطيع أن تفعل مع هذا الفتى ما هو خير - حسبما أرى - يروق لى جدا أن تقف على ما حدث لحكيم كبير مع ملك فتى ، كان يؤدبه .

- سأله القونت : وكيف كان ذلك ؟

- شرع باترونيو : سيدى القونت ، كان لأحد الملوك ولد ،

عهد به إلى حكيم يربيه ، كان يثق فيه ، حين مات الملك ، ورثه ولده - وهو حدث - فظل الحكيم وصيا حتى بلغ الخامسة عشرة ، لكن بعد أن دخل طور المراهقة شرع يستهين بنصائح الحكيم ، منقادا لنصائح الفتيان ، ولأنهم لم يحبوه ، فلن يهتموا بصحته ، وبسمعته الحسنة ، وبحياته بهذه الطريقة لم يعد لا جسداً ولا خلقا كما كان من قبل ، وانتقده الجميع لإخلاله بسلامته ، وإسرافه فى ثروته ، وأخذ الحال فى الانحدار ، فاغتم الحكيم مؤدبه جدا ، ولا يدرى ماذا يصنع ، فقد حاول مرارا أن يصلح من أمره بكلمات لينة ، ومعاتبته بشىء من الشدة دون أن يحرز شيئا لأن الصبا لم يدع للملك الفتى أن يرى صالحه ، حين تيقن الحكيم أن هذه الطريقة لا تفلح فى شىء فكر فيما تسمعه الآن .

شرع الحكيم يهمس قليلا بين الحاشية بأنه الشخص الوحيد فى العالم الذى يعرف منطق الطير ، فتناقل الناس الخبر حتى وصل إلى مسامع الملك ، فسأل الحكيم هل ما سمعه عنه صحيح ، فتصنع الحكيم أن ينفى الأمر بداية إلا أنه فى النهاية اعترف أن الأمر صحيح لكن من المناسب ألا يعرف الخبر أحد فى العالم ، وبما أن الفتيان نافدو الصبر لكى يعرفوا ويفعلوا ، فإن الملك احترق رغبة ليسمع الحكيم ينطق لغة الطير ، وكلما ما طل الحكيم نفد أكثر صبر التلميذ ، الذى شدد عليه كثيرا لكى يقررا الخروج ذات يوم مبكرين

جدا ، ولا يراهما أحد وهما يستمعان إلى الطير .

خرجا مبكرين جدا ، حمل الحكيم الملك إلى واد فيه ضياع كثيرة ، مهجورة ، وفى النهاية رأيا غرابا ينعب فوق شجرة فأشار الملك للحكيم ، الذى أشار إليه بدوره أنه يفهمه ، بدأ غراب أخر ينعب فوق شجرة أخرى ، وظل الغرابان فترة ينعبان ، أحدهما فترة والآخر يجاوبه ، عندما استمع الحكيم فترة شرع فى البكاء دون أن يتسلى ، حتى إنه مزق ملابسه ، يتنزى ألما ، حين رأى الملك هذا فزع جدا ، سائلا لماذا يصنع ذلك ، فحاول الحكيم بداية ألا يفضى بالسبب متصنعا ، لكن مع محاولة الفتي بدأ يتحدث قائلا إنه يفضل أن يموت على أن يعيش ، فإن الناس لم تعد وحدها بل معها الطير - يفهمون أنه بسبب حماقة الملك تنهار المملكة ، وتنفق الثروات ، ولهذا ذاته يحتقرونه ، سأل الملك كيف يمكن هذا ، فأجابه الحكيم : إن هذين الغرابين قررا أن يتزوج ابن أحدهما من بنت الآخر ، وأن الأول قال للثانى إن الزواج منذ مدة مناسب ، والآن عليهما أن يتما الزواج ، وقال الغراب الثاني صحيح إن الزواج منذ مدة مناسب ، إلا أنه الآن أكثر ثراء بفضل الله ، منذ أن حكم هذا الملك لأن كل الضياع فى هذا الوادى غدت خرابا ، ولذا يجد فى البيوت المهجورة حيات ، وعظايا ، وضفادع وحشرات أخرى كثيرة ترعى فى تلك الأماكن الخربة ، وبها تحسن الطعام جدا ، ولذا أصبح

الزواج الآن خيرا من الأمس ، حين سمع الغراب الآخر هذا بدأ يضحك ، وأجاب ، لقد كان من الحماقة تأجيل الزواج لهذا ، فإن الله وحده إذا مد فى حياة هذا الملك فسوف يتفوق هو (الغراب) فى الثراء ، إذ لن يمهل حتى يصير ذلك الوادى الآخر صحراء حيث أسكن ، وفيه عشرة أضعاف هذا الوادى ضياعا ، وحين يكون الأمر هكذا لا داعى لتأخير الزواج ، ولذا اتفق الغرابان على الاحتفال بالزواج حالا .

عندما سمع الملك الفتى هذا انزعج جدا ، وشرع يفكر إنه من العار أن يخرب ملكه بهذه الطريقة ، حين رأى الحكيم أسف الفتى وهمومه - وهو فى الحق يود إصلاحه - نصحه ، بطريقة جيدة ، وخلال فترة قليلة انصلح ما كان فاسدا ، وانتظمت حياة الملك ومملكته .

فانظر سيدى القونت ، لقد ربيت هذا الفتى ، وتود أن يكون على الصراط المستقيم ، فابحث عن طريقة هدايته بوسائل قصصية مشوقة ، تروق لدى سماعها ، لكن عليك ألا تشوشه رغبة فى إصلاحه بالشتائم والمشادات ، لأن طبائع أكثر الفتيان تضجر بسرعة ممن يوبخهم خاصة إذا كان فتى معرقا ، إذ أنهم يعتقدون أن ذلك إهانة ، دون أن يروا كم هم مخطئون فى سيرهم فى هذا الطريق ، إذا لا يوجد فى الدنيا صديق صالح مثل من يوبخ الفتى لئلا يخطئ ، غير أن الفتيان لا يرون الأمر هكذا ، بل يرونه من نظرة مخالفة ،

بحيث إنك لو فعلت هذا يتولد بينكما تنافر شديد يمكن أن يضربكما فى يوم قريب.

راق للقونت جدا هذه النصيحة التى قالها باترونيو، وقد هدته إلى الطريق من الآن فصاعدا ، وبما أن دون خوان راقت له هذه الحكاية أمر بضمها إلى كتابه، وختمها بهذه الأبيات :

لا ينبغى أن نزجر الفتى
بل نقنعه بكلمات طيبة

الحكاية الثانية والعشرون

ما حدث للأسد مع الثور

مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره فقال له :

– يا باترونيو : عندى صديق مشهور ، شديد القوة ، وبالرغم من أننى حتى الآن لم أتلق منه سوى الجميل ، فإنهم يقولون لى إنه ليس هكذا ، وإنه يبحث لى عن وسيلة لقطع العلاقة . الأمر الذى يسبب لى قلقا شديدا ، خاشيا إذا انتبه إلى أننى أشك فيه واتحفظ فى التعامل معه أن يعاملنى بالمثل ، وهو شئ ينمى الريبة بيننا ، وينتهى بنا إلى القطعية ، وللثقة التى توليها لى أرجوك أن تشير على بما يبدو لك صالحا .

– أجاب باترويو : سيدى القونت لوقانور : لكى تستطيع منع الآلام التى تنتج عن الخلاف يروق لى أن تعرف ماذا حدث للأسد والثور .

– رجاه القونت أن يقص عليه ما حدث .

– قال باترونيو : سيدى القونت : كان الأسد والثور صديقين حميمين ، ولأن الاثنين يتمتعان بقوة هائلة فإنهما كانا سيدى الحيوانات الأخرى ، وبمساعدة الثور استطاع الأسد أن يخضع الحيوانات آكلة اللحم ، وبمساعدة الأسد أخضع الثور أكلة العشب ، حين رأت الحيوانات أن الأسد

والثور يخضعانها بتضامنها معا ، مما يسبب لها ضررا شديدا فقد تحدثت فيما بينها كيف تتخلص من قهرهما ، مدركة أنها إذا استطاعت أن تحدث شقاقا بين الأسد والثور فلا يستطيعان أن يضعا نيرهما فوق أعناقها ، وحملت الثعلبة والكبش المسئولية ، وكانا يحظيان بالقرب من الأسد والثور ، وجاهدت لإيغار صدرهما ، فوعد كلاهما أن يفعلا ما في وسعهما .

طلبت الثعلبة وهي مستشارة الأسد من الدب وهو أقوى الحيوانات بعد الأسد من أكلة اللحوم أن يقول للأسد إنهم قالوا له منذ أيام كثيرة إن الثور يبحث عن وسيلة تجلب الضرر ما أمكن للأسد ، وبالرغم من أن هذا يمكن أن يكون كذبا فإنه يجب أخذ الحذر ، وقال الكبش الكلام ذاته - وهو مستشار الثور - للحصان وهو الحيوان الأقوى بعد الثور من أكلة العشب .

حين سمع الأسد والثور هذا من الدب والحصان ، وإن كانا في البداية لم يطمئنا إليه يخشيان من أنهما - وهما أهم ما في الرعية - قد قالا ذلك لإحداث الشقاق بينهما لم يستطيعا مع ذلك إضمار شئ من الريبة . لهذا تحدث الأسد مع الثعلبة ، والثور مع الكبش وهما أمينا أسرارهما . فقال كلاهما إنه وإن كان من الممكن أن الدب والحصان لم يقولا الحق ، فإنه ينبغي أخذ الحيطة من الآن فصاعدا من أقوال الطرف الثاني

وأفعاله كي يواجهها كل حدث بما يجب ، حين أدركت الحيوانات أن كليهما بدأ يستريب من الآخر ، أنشأت تتحدث إليهما دون أية حجة من أن أحدهما إذا استراب فإنه من الخشية أن يكون نيته السيئة التي يكنها في أعماق ضميره قد ظهرت

الثعلبة والكبش منتبهان - باعتبارهما ناصحين سيئين إلى مصلحتهما -نسيا الوفاء الواجب لسيديهما ، فمارسا خداعهما بدلا من محض النصيحة لهما ، وجاهدا كثيرا في أن الصداقة التي تربط بين الأسد والثور تنقلب إلى شقاق .

وقد رأت بقية الحيوانات ذلك شددت الخناق أكثر على الزعيمين حتى دخلا في معركة تفهمها أنها لم تفكر إلا في مصلحتهما ، بينما هي تبحث عن مصلحتها الخاصة ، محاولة أن يقع الضرر على الاثنين معا . وفي النهاية ، وبالرغم من أن الأسد ألحق ضررا أكثر بالثور ، إلا أن الأسد هزل قدره وقوته ، ولم يعد يستطيع أيضا أن يمنع صاحبه من أن يهزل بطريقة لا يستطيع معها العودة إلى السيطرة على الحيوانات من فصيلته ولا من أية فصيلة أخرى ولم يستطيع التحكم كما هو الحال قبلا . وهكذا لأن الثور والأسد لم يفهما أنهما بالتحالف والتضامن بينهما كانا مقدرين وسيدين على كل الحيوانات ، ولأنهما لم يحتفظا بالصداقة النافعة لهما ، وإغلاق آذانهما للنصائح السيئة للمهتمين بهزالهما لنزع

نيرهما ، فقد بقيا هزيلين وبدلا من سيطرتهما على الحيوانات ، خضعا هما لمن تعود الخضوع لهما .

إذن يا سيدي القونت لوقانور ، احذر من أن هؤلاء الذين يزرعون الريبة في نفسك لصديقك القديم في نفسهما الهدف ذاته الذى كان لدى ناصحي الأسد والثور ، لهذا أعتقد إذا كان صديقك رجلا وفيا ، وتجد منه دائما أعمالا طيبة ، وتثق فيه كما تثق في ابن صالح أو أخ صالح ، فلا يجب أن تصغى لما يقولونه لك ضده ، وقبل ذلك أنصحك أن تخبره بهذا ، لكى يخبرك بدوره بما يقولونه له ضدك ، ونكل بمن يدبر هذه الافتراءات حتى لا يجرؤا على العودة إلى عملها ، لكن إذا كان الصديق على غير الوفاء ، بل من الأصدقاء النهازين ، أو من أصدقاء المنفعة ، أو من الأصدقاء الوقتيين ، فحاول ألا تقول ولا تعمل له شيئا لأنه يمكن أن يفهم أنك تشك فيه ، ولست مستعدا لإلحاق ضرر به ، بل تغاض عن أخطائه ، فلا يستطيع عملها دون توقع فلست ترى ضررا قادما من بعيد مثل الذى تستقبله إذا تنازعتما بسبب ما يصل إلى أسماعكما من النصائح السيئة وأفهم هذا الصديق إنك إذا كنت محتاجا إلى مساعدته فهو محتاج منك إلى مثلها ، بهذا تقدم له فضلا مقابلا له دائما بوجه حسن ، لا تغضب بلا سبب ولا تعتقد أبدا في مثيرى الخلافات ، مقنعا إياه أنه من الصالح لكما التضامن ، بهذا تدوم الصداقة ، ولا تقعا في الخطأ الذى وقع

فيه الأسد والثور .

أعجب القوذت كثيرا بالنصيحة التى قدمها له باترونيو وعمل بها ، ورأى عاقبتها حسنة ، ورأى دون خوان أن الحكاية جيدة فضمها إلى كتابه وشفعها بهذه الأبيات :

لا تفقد صديقا نافعا

بوشاية يقولها لك الكاذب

الحكاية الثالثة والعشرون
ما يصنعه النمل لحفظ قوته

مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره ، قائلا له :

- باترونيو : الحمد لله أننى واسع الثراء ، بعضهم ينصحنى - وأنا أستطيع العمل بالنصيحة - أنه لا يجب أن أشغل بالى أكثر إلا بالطعام والشراب والراحة ، والتمتع ، إذ أن لدى ما هو ضرورى للسنوات الباقية لى من الحياة وترك إرث كبير لأولادى ، ولإدراكك الدقيق أرجوك أن تنصحنى بما يبدو أنه يجب صنعه .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور : بالرغم من أن الراحة والتمتع بالحياة ليس أمرا سيئا ، ولكى تعمل فى هذا الأمر كما تعمل فى كل أمورك ما هو مفيد ، يروق لى أن تعرف ما يصنعه النمل لحفظ قوته .

- سأله القونت ، وكيف كان ذلك ، فقال باترونيو :

- سيدى القونت لوقانور : أنت ترى كيف يكون ضآلة حجم النمل ، وحسب حجمها يبدو أنها لا تحتاج إلى زاد كثير وهى تخرج - بحثا عن قوتها - كل عام إبان الحصاد من جحرها ، ذاهبة إلى البيادر فتحمل إلى جحرها كل الحبوب التى تستطيع ، وحين يسقط الغيث تخرج تلك الحبوب ، ويقول الناس إنما تفعل ذلك لغسلها ، دون أن يدروا شيئا عما

يقولون ، والأمر ليس هكذا ، فإن المسألة كما تعرف جيدا ، أن النمل حين تخرج الحبوب لأن المطر بدأ يسقط ، ويدخل الشتاء وهو عمل تعمله النمل حين يسقط المطر كل مرة ، فتخرج الحبوب لغسلها ، حيث لا شمس لهذا ، إذ أن الشمس لا تشرق دائما فى الشتاء ، حيث تستطيع أن تجفف أى شئ حين تريد ، والحق أنها تخرج الحبوب حين تمطر السماء أول مرة ، إذ أنها تضع فى جحرها كل الحبوب التى تستطيع تخزنها Almacenar محاولة أن يكون كثيرا ، مفكرة فى تأمين حياتها هذا العام . بيد أن المطر حين يسقط ، تبتل الحبوب ، وكما هو طبيعى تبدأ الحبوب فى التنبيت ، مرتئية أن الحبوب إذا نبتت وهى فى الجحر ، فإنها تسد المداخل والمخارج ، وبدلا من أن تصلح قوتا لها ، تكون ذريعة لموتها ، وخرابها ، فتخرج الحبوب إذن ، وتطعم مكان التنبيت ، وهو ما يخرج منه الجذور والسيقان ، تاركة فحسب الغشاء الخارجى حيث لا ينبت مهما كان المطر ، وبهذه البقايا تقتات طوال العام ، أيضا ترى أنها وإن كان لديها كل حاجتها من القوت ، فإن الجو حين يصفو لا تدع فرصة أن تحمل إلى الجحر كل العشب الذى تلقاه ، تخشى ألا يكفى ما خزنته من قبل ، وهو ما يعنى أنها لا تكسل أبدا ، ولا تضيع الوقت الذى منحها الله أن تفيد منه .

فيا سيدى القونت ، مثل النمل وهى ضئيلة الحجم ، يمثل

تلك الإشارات الذكية ، والنشيطة ، يجب أن تقتنع أنه ليس من صالح أحد ، وقبل ذلك من صالح أولئك يتبوأون مناصب رفيعة ، ويحكمون جماهير ، أن يأكل كل ما ربحه ، فإن المال الذى تملكه ، إذا أنفقت منه كل يوم ولا تنميه فإنه لا محالة منته ، فضلا عن أن ذلك الصنع يعطى انطباعا بفتور الهمة ، لهذا أنصحك ، إذا أردت أن تأكل ، أو تستريح ، فافعل دون أن تنسى قدرك ، ناظرا إلى غدك لكى تأمن دائما غوائل الحاجة ، وإذا كان لديك الكثير والرغبة فى أن تكون صالحا ، فلا ينقصك استخدام المال فى إعلاء شأنك .

راق للقونت كثيرا تلك النصيحة التى أشار عليه بها باترونيو وعمل بها ، دون أن يندم ، وراق لدون خوان تلك الحكاية ، فضمها إلى كتابه ، مشفوعة بهذه الأبيات :

لا تأكل دائما كل ما ادخرته

فمهما عشت بهذه الطريقة ، تموت شريفا

الحكاية الرابعة والعشرون

ما حدث لملك أراد أن يختبر أولاده الثلاثة

مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشار قائلا :

- باترونيو : فى بيتى يربى فتيان كثيرون ، أبناء سادة وفتية آخرون أبناء أناس بسطاء أكتشف فيهم صفات متميزة متباينة ، أرجوك - لثقوب ذهنك - أن تقول كيف أتمكن من معرفة أى منهم يصل إلى أن يكون رجلا مفيدا .

أجاب باترونيو : سيدى القونت ، هذا أمر يعسر معرفته على وجه اليقين ، لأن المستقبل لا يعرف يقينا ، وما تسأل عنه متعلق بالمستقبل ، نعرف فحسب ما نشيمه من الفتيان ظاهرا وباطنا ، هكذا نرى من الظاهر الملامح ، الرشاقة ، اللون ،هيئة الجسد ، وكل الأعضاء التى تعكس بناء الأعضاء الشديدة الأهمية ، مثل القلب ، والمخ ، والكبد ، وبرغم أن هذه الإشارات مفصحة ، إلا أننا لا ندرك الأمور يقينا ، لأنه فى أحيان قلائل تتفق الإشارات ، وأحيانا تشير إلى الشئ ونقيضه وإن كانت الأعمال عموما تفضى بما تعلن عنه ، الإشارات اليقينية تلمح من الوجه ، ومن العيون خاصة ، وأيضا تخدعنا الرشاقة فى قليل من الأحيان ، فلا تظن أن الرشاقة دليل على ملاحة رجل ، فإن رجالا كثيرين فيهم ملاحة وليس فيهم رشاقة رجولية ، وآخرين فيهم قبح ، إلا

أنهم كرماء وفيهم وجاهة ، فشكل الجسد والأعضاء تشى بالتركيب . ومنه نستدل على أن الرجل يكون شجاعا أو جبانا .

وبالرغم من أن هذا يبدو فى الظاهر ، فلا ندرى كيف تكون الأفعال ، لذا أقول إن هذه مجرد إشارات ، وما تود أن تقوله إنها تعطينا علامات ، وليس يقينا ، فالعلامة تشير إلى ما هو محتمل ، وليس لماهو سيقع لا محالة ، هذه هى الإشارات الملحوظة فى الظاهر ، وأعود فأكرر إنها مجرد ظن ، لكن يمكنك معرفة طبع الفتيان من الأعماق ، وهى أقرب إلى اليقين من سالفتها فإنه يروق لى أن تقف على طريقة أحد ملوك المسلمين وهو يختبر أولاده الثلاثة ليعرف من منهم أحق بوراثته .

رجاه القونت أن يقص عليه القصة قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : كان لأحد ملوك المسلمين ثلاثة أبناء ، وبما أنه من عادة المسلمين أن يخلف الأب ابنه الذى يسميه ، حين زحفت الشيخوخة إلى الملك ، رغب إليه رجال الحاشية أن يعين أحد أبنائه الذى سيكون ولى عهده ، قال الملك سيقول لهم بعد مرور شهر ، بعد ثمانية أيام أو عشرة قال ذات أصيل لابنه الأكبر ، إنه فى صباح الغد مبكرا جدا يود الخروج معه راكبين الفرس ، حضر الابن - حقيقة - إلى الملك لكن غير مبكر كما أمره أبوه ، قال له ، أرسل فى طلب ملابسه التى

يود أن يلبسها ، فطلب الابن من الخادم أن يحضر ملابسه ، سأله الخادم ماذا تريد من الملابس ، فعاد الإبن يسأل أباه ، الذى قال له البس الجبة Aljuba ، فقال للخادم ، الذى بدوره سأل الملك أى محشية تريد Almejjia ثم عاد الابن يسأل مرة أخرى ، حدث هذا مع كل سؤال عن الثوب ، ما بين ذهوب وجيئة الابن مابين الملك والخادم ، حتى غدا كل شئ معدا ، جاء وألبس الملك ثوبه وحذاءه .

حين أصبح الملك لابسا ملابسه وحذاءه ، أمر الابن أن يحضر حصانه ، فقال الإبن للسائس الذى سأل أى حصان يريد الملك ، فسأل الابن أباه ، وصنع هذا الصنيع فى الأسئلة عن السروج واللجام والسيف ، والمهاميز ، أى عن كل شئ مطلوب للرحلة ، وحين أصبح كل شئ جاهزا قال الملك لابنه إنه لا يود أن يخرج يتمشى ، بل يذهب هو خلال المدينة ، ويتأمل ما يراه لكى يحكيه لأبيه ، ركب الابن محوطا بالحرس الملكى ووجهاء القوم من البلاط ، مصحوبا بكثير من الآلات الموسيقية والطنابير وآلات أخرى ، بهذه الطريقة تمشى برهة فى المدينة ، وحين رجع سأله الملك ما رأيك فيما رأيت ، فأجاب كل شئ على ما يرام ، لكن الضجيج المنبعث من الآلات أزعجه جدا .

بعد أيام قلائل طلب الملك ابنه الثانى أن يجئ إليه فى صباح مبكر ، ففعل الابن ، وضعه الملك فى الاختبارات ذاتها

التى وضع فيها من قبل الابن الأكبر ، فقال الابن الثانى ما قاله الأول وأن المدينة تبدو له على ما يرام .

لم تمر أيام كثيرة حتى دعا الابن الاصغر إلى الخروج مبكرا ، نهض الابن قبل الأب ، منتظرا ما يفعله ، ثم دخل إلى غرفة الأب محييا له فى خشوع وأدب كما ينبغى ، طلب الملك منه أن يحضر ملابسه ، سأله الابن أى ثياب يريدها وأى حذاء سيلبس، وفى مرة واحدة ذهب لإحضاره ، وأحضره ، دون أن يأذن لأحد أن يلبسه ملابسه وحذاءه ، منبئا إياه إنه سعيد بخدمته ، ولأنه ابنه فمن الطبيعى أن يقوم بهذا ، حين أصبح الملك لابسا ثيابه وحذاءه ، طلب منه أن يحضر حصانه ، سأله الابن أى حصان يريد ، وأى سرج وأى لجام ، وأى سيف ، ومن يود أن يصحبه ، دون أن ينسى أى شئ يجب السؤال عنه ، بعد ذلك أحضر كل شئ ، ونظم الأمور كلها كما طلب الأب ، حينئذ قال له الأب إنه لا يود أن يخرج ، بل يذهب الابن ، وأن يقص عليه ما جرى ، ركب الابن مصحوبا بالحاشية كما صنع الابنان الآخران ، ومع ذلك دون أن يدرى أحد نية الأب .

حين خرج الابن من القصر أمر أن يدلوه على داخل المدينة ، الشوارع ، المكان الذى يملك فيه الأب كنزه متسائلا عن الأشياء الواضحة فيها ، وعدد سكانها ، ومساجدها ، بعد ذلك خرج إلى الحقول ، وأمر أن يجتمع كل الرجال المسلمين مشاة

وركبانا الذين هم فى خدمة أبيه ، وأمرهم أن يقوموا بتجارب حربية ، وألعاب أخرى عسكرية ، كذلك رأى الأسوار والأبراج ، وحصون المدينة ، حين رأى كل هذا عاد إلى القصر .

حين عاد الابن كان الوقت متأخرا ، سأله الأب ماذا رأى ، أجاب الابن ، إذا كان لا يزعجه ، فسوف يقول له الحقيقة ، أمره الأب أن يقول مشفوعا بيمنه ، وبركاته ، قال الابن ، إنه وإن كان يعتقد دائما أنه ملك صالح ، فإنه مقتنع أنه ليس كما يعتقد ، فإنه يحكم أناسا كثيرين طيبين ، وهو ذو قدرة ضخمة ، وله ثروة هائلة ، فإنه لا يفهم كيف يكون الشعب ليس معه ، شكر له الملك صراحته ، بصورة جعلته حين حانت ساعة تعيين ولى عهده ، عين ولده الثالث الأصغر ، وقد صنع الملك هذا لما رأى من إشارات دالة ، برغم أنه كان يود أن يعين أحد ولديه الآخرين ، فقد اعتقد أكثر أن الابن الأصغر أصلح لولاية العهد .

فانظر سيدى القونت لوقانور ، إذا أردت معرفة أى الفتية أصلح حين يكبر ، انظر فى هذه الدلائل ، واستنبتج منها شيئا .

راق للقونت كثيرا ما قصه باترونيو ، وبما أن دون خوان بدا له هذه الحكاية جيدة ، كتبها فى هذا الكتاب وشفعها بهذه الأبيات :

من خلال أقوال الفتيان وأعمالهم تستطيع أن تعرف كيف يصيرون .

الحكاية السادسة والعشرون
ما حدث لشجرة الكذب

ذات يوم تحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو قائلا .

- باترونيو : تدرى أننى منزعج جدا ، وعلى حافة الصدام مع أناس لا يحسنون التعامل معى ، وهم شديدو الكذب والخداع ، لا ينطقون كلمة حق فى حقى ولا فى الآخرين الذين يعاملونهم ، وكذباتهم مموهة دائما بلون الصدق تجلب لهم المنافع ، وتسبب لى الألم ، لأنها فى الوقت ذاته تزيد من قوتهم ، وتوغر أناسا كثيرين ضدى ، وإننى لواثق أننى إذا رغبت أن أصنع صنيعهم لابد أن أزوق الكذب كما يصنعون وبما أننى مدرك أن الكذب شر فلا أريد أن أرتكبه ، ولثقوب ذهنك أرجوك أن تقول لى أى طريق ينبغى أن أسلك فى تعاملى مع أولئك المحتالين .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، لكى تتمكن من خير ما يجب أن تفعل ، وما هو مناسب ينبغى أن تقف على ما حدث للصدق والكذب .

رجاه القونت أن يقص عليه ما حدث .

- قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : اجتمع الصدق والكذب مرة ، وحينما مر عليهما زمن مجتمعين ، قال الكذب - وهو شديد القلق - للصدق : إن عليهما معا أن يزرعا شجرة ليتمكنا من الاستمتاع بثمرها والجلوس فى ظلها حين يجئ

الحر ، وحين رأى الصدق أن الأمر سهل وطيب أقر الفكرة .

حين غرست الشجرة ، وبدأت تبرعم ، قال الكذب للصدق إن من الخير أن يقسماها ، فبدا للصدق أن الأمر طيب ، فبرهن الكذب ممن خلال سفسطات متعددة بما أن جذر الشجر يحفظ سر الحياة فإنه خير قسم ، فنصح الصدق أن يختار الجذور المستكنة فى التربة ، بينما هو يغامر بخطورة أن يكون من نصيبه الأغصان ، التى تشرع فى الظهور ، ولأنها فوق الأرض يمكن أن تقطع ، أو ينزعها الناس ، أو تقضمها الحيوانات ، أو تفسدها الطيور ، أو تحرقها الشمس ، أو يجمدها الصقيع ، وهى مخاطر لا تتعرض لها جذور الشجرة.

عندما سمع الصدق كل هذه الحجج ، ولأن الصدق موقن وواثق وليس فيه خبث ، صدق كل ما قيل ، واقتنع بكل ما قاله الكذب ، وبما أشار به أن قسمه خير قسم ، فأخذ الجذور لنفسه ، واغتبط بها ، وسر الكذب جدا حين رأى أن خداعه جعل من رفيقه ضحية ، قائلا له كذبات جوهرية ، تشاكل الصدق تماما .

بإتمام التقسيم ولج الصدق حيث الجذور التى اختارها ، بينما ظل الكذب فوق الأرض مع الناس ، شرعت الشجرة فى النمو ، تتفرع أغصانها الكبيرة ، وأوراقها العريضة ، تظلل ، وتزهر زهورا جميلة ، ذات ألوان حية ، مبهجة للنظر ، حين رأى الناس هذه الشجرة الجميلة تفيأوا ظلالها ، وأزهارها الرائعة الألوان ، ومعظم الناس يجلسون مأخوذين

إلى درجة عدم رغبتهم فى الانتقال منها ، حتى الذين هم فى أماكن أخرى يقول بعضهم لبعض إذا أردتم الراحة والسرور فعليكم بتفيؤ ظلال شجرة الكذب ، ولأن الكذب مداهن وذو خبرة يجعلهم يقضون أوقاتا طيبة أولئك الذين يلتقون هناك ، يعلمهم ما يعمله ، فراق للناس جدا تعلم هذا الفن ، وبهذه الطريقة جلب معظم الناس ، فعلم البعض أكاذيب أحادية ، والمهرة منهم علمهم أكاذيب مضاعفة ، والحكماء منهم علمهم أكاذيب ثلاثية .

وينبغى أن تعلم أن الكذب الأحادى هو عندما يقول أحدهم لآخر : « يا فلان ، إننى سأصنع هذا الأمر لأجلك » دون أن يفكر فى صنعه ، والكذب المضاعف حين يقسم الرجل ، ويقدم رهينة يوكل أحدا يتعاقد من أجله ، وبينما يقدم هذه التوكيلات يفكر فى الطريقة التى لا يفى فيها بما يعد ، والكذب الثلاثى وهو شديد الفعالية والذى نبرأ منه بصعوبة شديدة هو كذب من يكذب مع الصدق . الكذب عارف بكل هذا ، عالم أن يعلم جيدا أولئك الذين يلتقون تحت ظلال الشجرة ، وهم إذ فهموه حصل أولئك الناس معظم الأشياء التى يريدونها ، ولا يجدون أحدا يجهل أن يكون تحت إرادتهم ، فى جذب أولئك الناس بجمال الشجرة ، إلى جانب الفن الذى علمهم إياه الكذب ، بهذا كان الكذب مقدرا جدا لدى الجميع الذين يتناقشون فى فضائله ، بهذه الطريقة كان الذى يحصل على حظوة أقل ، ويجهل فن الكذب أقل احتراما ،

وكان هؤلاء أنفسهم محدودين .

الكذب حاظيا بكل هذه الشعبية ، كان الصدق حزينا ، مبتلى تحت الأرض لا يدرى به أحد ، ولا يهتم أحد بالبحث عنه ، وحين رأى أنه لم يعد له قوت سوى جذور الشجرة التى اختارها بنصيحة الكذب ، انثنى يقضمها متلتاتا بها ، بالرغم من أن الشجرة ذات غصون قوية ، وأوراق عراض ، تظلل كثيرا ، وتمنح زهورا كثيرة ذات ألوان بهيجة ، وقبل أن تثمر الشجرة كان الصدق قد اجتث جذورها ، حين اختفت كلها كان الكذب تحت ظل الشجرةمع أتباعه الذين علمهم فنه إذا بعاصف شديد سقطت الشجرة على الكذب حيث لم يعد لها جذور ، فجرح جرحا بليغا ، بينما مات بعض أتباعه أو أصيبوا إصابات بليغة . ومن الفجوة التى كان يشغلها الجذع خرج الصدق الذى كان غائرا ، وبوصوله إلى السطح رأى الكذب ، وكل من كانوا يلتفون به منكسرين نادمين لما فهموه ، ولما طبقوه عمليا مما علمهم الكذب .

فيا سيدى القونت لوقانور ، تأمل أن الكذب ذو غصون جميلة ، وفيها أزهار هى أقواله ، وأفكاره ، ومداهناته ، وبالرغم من أنها لطيفة إلا أنها كالدخان ، ولا يمكن أبدا أن تثمر ثمارا طيبة ، ولذا مهما كان أعداؤكم يستخدمون معكم الكذب والخداع ، فعليكم أن تمنعوهم ، ولا ترغبوا فى مجاراتهم فى هذا ، ولا تحقدوا على ما هم فيه من رخاء يبلغونه بهذه الوسيلة فإنكم تدرون يقينا أنه لن يدوم كثيرا

، ولأن الكذابين عاقبتهم وخيمة ، فإنهم يسقطون حين يظنون أن الدنيا دانت لهم ، كما سقطت شجرة الكذب فوق من كانوا فى ظلها وادعين ، وحتى لو كان الصدق لا يقدر كثيرا فعانقوه واحترموه ، فبه تعيشون سعداء ، وتكون العقبة خيرا ، وتحظون برضا الله الذى أمدكم بعونه ، ويبوأكم مكانا حسنا فى هذه الدنيا وسيجزيكم بثوابه فى الحياة الآخرة .

راق للقونت كثيرا تلك المشورة التى أشار بها عليه باترونيو ، وعمل بها وكان عاقبتها حسنة ، ورأى دون خوان أن الحكاية حسنة فضمها إلى كتابه وختمها بالشعر الذى يقول :

عاقبة الكاذب وخيمة
لذا علينا أن نهرب من الكذب

الحكاية التاسعة والعشرون

ما حدث لثعلبة تمددت في الشارع متماوتة

في يوم آخر كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره قائلا له :

- باترونيو : أحد أقاربي ليس لديه القدرة الكافية لكي يمنع في محلته التي يعيش بها المظالم الكثيرة التي تمارس ضده ، هؤلاء الأقوياء في تلك المحلة يسرهم أن يقدم على شيء يصلح تعلة للهجوم عليه ، ويقول قريبي إنه يشعر بثقل وطأة ما يحملونه إليه ، ويود أن يغامر بما يملك قبل أن يستمر في الحياة بهذه الصورة ، وبما أنني أود أن يصيب الهدف أرجوك أن تقول لي بم أشير عليه .

- أجاب باترونيو : سيدي القونت لوقانور : لكي تستطيع أن تنصحه يروق لي أن أحكي ماذا حدث مرة لثعلبة تماوتت.

- رغب إليه القونت أن يقص عليه هذا .

- قال باترونيو : سيدي القونت : دخلت ذات مساء ثعلبة إلى حظيرة الدجاج ، وشفت غليلها منها ، وعندما ظنت أنها تستطيع الفرار وجدت أن النهار قد تنفس ، والطريق مليء بالسابلة ، وحين رأت أنها لا تستطيع الاختفاء خرجت متخفية من الحظيرة إلى الشارع ، وتمددت متماوتة ، فلم يقترب أحد منها ، إلى أن مر رجل ، فقال في نفسه إن شعرات جبهة الثعلبة حين توضع على جبهات الصغار تمنع

عين الحسود . قال ذلك وقص بالمقص بضع شعرات من جبهتها ثم مر رجل آخر ، وقال نفس الشئ ، فيما يتعلق بشعر الذنب ، وآخر قال عن شعر الخاصرة ، وآخرون قالوا عن أماكن أخرى حتى انتهوا إلى جز شعرها كله . كل هذا والثعلبة ساكتة ، لأنها تعتقد أن فقدان الشعر لا يضر كثيرا ، إلى أن جاء آخر فقال إن ظفر إبهام الثعلبة مفيد للبثرات ، فقطعه ، دون أن تحرك ساكنا ، بعد قليل أقبل آخر وقال إن ناب الثعلبة مفيد لآلام الأضراس ، فاقتلعه ، دون أن تحرك ساكنا أيضا .

ثم أقبل آخر وقال إن قلب الثعلبة مفيد لآلام القلب ، فاستل سكينا لينتزعه ، رأت الثعلبة أنهم إذا انتزعوا قلبها فلن يكون مثل انتزاع الشعرات التى تعود إلى النمو ، بل إنها دون القلب ستموت حتما . ولذا قررت المغامرة كاملة قبل فقدانه ، فجاهدت فى الاختفاء واستطاعت الفرار .

فيا سيدى القوقت لوقانور ، انصح قريبك ، بما أن الله قد شاء له أن يعيش فى تلك المحلة حيث لا يستطيع أن يمنع المظالم الموجهة إليه ، ولا يستطيع الثأر من المهانات التى يتلقاها ، فليتحمل ذلك ، وليصبر مبديا أن ذلك لا يبالى به ، مادام يمكن التغاضى دون أن يصل الأمر إلى خطر التصدع (الموت) فحين لا يشعر المرء بالمهانة ، ولا بالخجل ففى وسعه أن يعيش مستسلما ، بيد أنه إذا أحس بالمهانة ، وأصابه الأذى

أمـام النـاس ، فـإن الثـأر يكون لزامـا . ولذا فـمن الأفـضل التـغاضى عن كل ما يـحتمل لكن حين تكون المهانة خطيـرة ، أو الأذى جسيـما فـينبـغى إذن المغامـرة بكل شئ ، وعدم الإغـضاء لأن فـقـدان المرء مـا يملك ، والموت ذيادا عن الحق أو الشـرف خير من البقاء متـحملا المهانات والمظالم .

رأى القـونت حسن تلك النصـيحـة ، وأمـر دون خـوان أن تكتب الحكاية فى كتابه هذا ، مشفوعة بهذه الأبيات :

تـغاض عن كل ما تـستـطيـع

واثأر فقط بشدة لما يـجب

الحكاية الثلاثون
« ما حدث للمعتمد ملك أشبيليه مع زوجته الرميكية »

بينما كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره فى أحد الأيام بهذه الطريقة .

- باترونيو : ثمة رجل يرجونى باستمرار أن أساعده ، وأن أمنحه عطية . وبالرغم من أننى كل مرة أصنع معه هذا الصنيع يشكره لى عندما يعود إلى الطلب مرة أخرى ، فإن لم أعطه ، فإن عندى انطباعا أنه سينسى كل ما قدمته له آنفا ، ولفهمك الحصيف أرجو أن تنصحنى كيف أتصرف معه .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، يبدو لى أن ما يحدث لك مع هذا الرجل هو ما حدث للمعتمد ملك اشبيليه مع زوجته الرميكية .

سأله القونت ماذا حدث ؟

قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور . كان المعتمد متزوجا بالرميكية ، وكان يحبها أكثر من أى أحد فى الدنيا ، وكانت هى من الطيبة إلى حد أن أقوالها وأفعالها ما تزال حديث المسلمين حتى الآن . بيد أنه كان بها عيب هو أنها كانت أسيرة رغباتها وإرادتها ، حدث ذات مرة وهى فى قرطبة فى شهر فبراير ، والثلج ينهمر ، وحين رأت

الرميكية البرد أنشأت تبكى ، سألها الملك لم تبكى ؟ فأجابت إنه لم يحملها أبدا إلى أماكن فيها البرد ، وبما أن قرطبة حارة ، حيث تثلج فى نادر الأحايين ، أمر الملك لإرضائها أن تغرس أشجار اللوز فى كل مناطق الجبل حتى إذا حان أوان الإزهار فى شهر فبراير تبدو وكأنها مغطاة بالبرد ، فتشعر هى بتحقيق رغبتها فى رؤية البرد .

مرة أخرى كانت فى مقصورتها المطلة على النهر ، رأت الملكة امرأة من عامة الناس ، حافية ، تدوس فى الطين لتصنع الطوب Adobes حينما رأتها الرميكية شرعت فى البكاء ، سألها الملك لم تبكى ؟ فأجابته إنها لا يمكن أن تصنع ما تشاء وإن كان شيئا بسيطا جدا مثل هذا الذى تصنعه تلك المرأة أمر الملك لإدخال السرور على نفسها أن تملأ البئر الكبرى فى قرطبة بماء الزهور ، بدلا من الطين ، وأن يلقى السكر والقرفة ، والخزامى ، والقرنفل ، والأعشاب المعطرة ، والعنبر ، والغالية "Ambar, Algalia" وكل أنواع العطارة والروائح ، التى يمكن العثور عليها ، وأن يطرح فيها قشر قصب السكر حين امتلات البئر بتلك الأشياء التى شابهت الطين الذى يمكن أن تتخيله ، نادى الملك على الرميكية ، وقال لها انزعى نعلك ، ودوسى على هذا الطين واصنعى منه الطوب Adobes الذى تشائين .

فى يوم آخر ، ولشئ آخر اشتهته ، بدأت فى البكاء سألها

الملك لم تبكى ، فقالت كيف لا أبكى وأنت لم تصنع شيئا من أجل جلب السرور إلى نفسي ، الملك ناظرا إلى أنه صنع من أجلها كل ما تشتهى ، وتحقيق رغباتها ، وليس فى وسعه صنيع شئ أكثر ، قال لها بالعربية : ولا يوم (نهار) الطين ؟ Wala Nahar Al- tin ? ، كى يفهمها أنها إذا نسيت أشياء أخرى فلا ينبغى لها نسيان الطين الذى صنعه لإسعادها .

إذن يا سيدى القونت لوقانور ، إذا رأيت أنك فعلت كثيرا لهذا الرجل ، وإن لم تفعل كل ما يريده ، فهو فيما بعد سينسى ، ولن يشكر ما قدمتموه ، فلا تصنع له إذن شيئا يضرك ، كذلك أنصحك إذا قدم لكم أحد معروفا ، وإن لم يقدم ما تبغونه ، فلا تظهر له الجحود لما قدمه .

رأى القونت أن النصيحة ثمينة ، وعمل بها ، إذ كانت حسنة ، ورأى دون خوان أن هذه الحكاية جيدة فضمها إلى كتابه ، وشفعها بهذه الأبيات :

من لم يشكرك على ما قدمته له

فلا تزد صنيعك له

الحكاية الرابعة ولثلاثون
ما حدث لأعمى يقود لأعمى

مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور إلى مستشاره باترونيو فقال له .

- باترونيو : أحد أقاربى ، أثق فيه كثيرا ، ومتيقن أنه يحبنى كثيرا ، ينصحنى أن أذهب إلى مكان أنا أخشاه ، وهو يؤكد لى قائلا ألا أخشى ، وليمت هو قبل أن يطوف بى أى طائف من الخطر ، أرجوك أن تنصحنى ماذا يجب أن أفعل .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، لكى أنصحك يروق لى أن تعرف ماذا حدث لأعمى مع صاحبه .

- سأله القونت ماذا حدث ؟

- قال باترونيو : سيدى القونت . كان رجل يعيش فى مدينة ، ثم فقد بصره ، وبقى أعمى مسكينا . وكان أعمى آخر يعيش فى المدينة ذاتها ، جاء إلى صاحبه يقترح عليه أنهما إذا ذهبا معا إلى مدينة أخرى قريبة من تلك حيث يرجوان أن يسألا الله ، لكى يستطيعا العيش ، وقال له صاحبا (الأول)إنه يعرف الطريق الموصل إلى المدينة ، ويدرى أن فيه آبارا ، ووهادا ، وشعابا شديدة الوعورة ، مما يسبب له خوفا شديدا من تلك الرحلة ، فقال له صاحبه لا تخش فإنه فى صحبته ، ولن يحدث شئ . وأطال وأعاد فى

الفـوائد مـؤكـدا لـه أنـه سـيـجـدهـا فـى تـلـك المدينـة ، فـاقـتـنـع صاحبنا وذهب معه .

وحـيـنـمـا وصـلا إلى المكان الوعـر سـقـط الأعـمـى الذى يـقـود صاحبه فمات ، وهكذا فقد صاحبه .

فـيا سيدى القونت ، فإذا خفت لسبب ، وكان الخطر مـحـقـقـا فـابـتـعـد عن الخطر ، لأن قـريـبـك قـال لك فـليـمـت قـبـلك إذا حـدث لك خـطـر ، فـإنك لا تـغـنـم كـثـيـرا إذا مـات أولا ، وأنت يـصـيـبـك الألم ، وتموت بعد ذلك .

رأى القـونت أن هذه النصـيـحـة حـسـنـة وعـمـل بـهـا ، ووجـد عـاقـبـتـهـا حـسـنـة ، ورأى القـونت لوقـانـور هـذه الحكاية طـيـبـة فضمها إلى كتابه وشفعها بهذه الأبيات :

اهرب من الخطر فهذا أكثر أمانا

مـن أى أمـان لا يـسـتـطـيـع أن يـقـدمـه

لـك أى صـديـق

الحكاية السادسة والثلاثون

ما حدث لتاجر وجد امرأته وابنه في فراش واحد

كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره ، وهو شديد الغضب بسبب أمر حدثوه بشأنه وكان مهينا ، وقال لباترونيو إنه يريد أن يثأر ثأرا تذكره الأجيال القادمة ، حينما رآه باترونيو شديد الغيظ ، مسلوب الفكر ، قال له :

- سيدي القونت : يروق لي أن تعرف ما حدث لتاجر ذهب مرة يطلب النصيحة .

- سأله القونت : وكيف كان ذلك ؟

- قال باترونيو : سيدى القونت . فى مدينة مرابطية كان يعيش حكيم عظيم ، لا يعمل فى أى مهنة سوى إسداء النصائح ، التاجر الذى أحدثك عنه سمع عنه ، ذهب يوما لرؤية الحكيم ، وطلب منه أن يسدى إليه نصيحة ، سأله الحكيم بأى ثمن تريد النصيحة ، لأن كل شئ بثمنه أجابه التاجر : إنه يريد نصيحة ثمنها دينار مرابطى MARAVEDI . فأخذ الحكيم الدينار ، وقال للتاجر :

- يا صديقى حين تدعى إلى وليمة ، ولا تعرف عدد الأطباق التى تقدم ، فاشبع من الطبق الأول .

قال التاجر : إنه لم يسد له نصيحة لها قيمة حسنة فشرح له الحكيم لا ينبغى له أن ينتظر نصيحة أفضل نظير ما

دفعه . طلب منه التاجر أن يسدى إليه نصيحة نظير دوبلة ، فأخذها الحكيم وقال له : حين يكون شديد الغضب ، ويريد أن يفعل شيئا وهو سليب الفكر فلا يأسف على الإهانة التى توجه إليه ، ولا يفعل شيئا حتى يقف على كل الحقيقة . فكر التاجر أنه بشراء مثل هذه النصائح يمكن أن يفقد دوبلات كثيرة ، فلم يرد نصائح أكثر . بيد أنه وعى النصيحة الأخيرة فى سويداء قلبه .

حدث أن أبحر التاجر إلى أرض قصية ، تاركا امرأته حاملا . تأخر كثيرا فى تجارته بتلك الأرض ، حين عاد وجد ولده فى العشرين من عمره ، والأم التى ليس لها غيره ، واعتقدت أن زوجها قد مات ، أحبت ولدها حبا جما ، ولحبها لزوجها ، نادت ولدها بزوجها . تأكل معه وتنام معه ، مثلما كانت تفعل وهو فى السنة الأولى أو الثانية من عمره ، قضت حياتها حصانا ، رغم الألم الذى تعانيه لعدم معرفة شئ عن زوجها .

أما التاجر الذى باع كل تجارته ، وعاد محملا بثروات ، حين عاد إلى ميناء مدينته حيث كان يعيش ، فلم يشأ أن يعرفه أحد فتخفى فى مكان مجهول ليرى ماذا حدث ، وبعد مرور نصف النهار ، وصل ابنه الذى قالت له أمه :

- قل لى يا زوجى من أى مكان جئت ؟

أما الزوج الذى سمع زوجته تخاطب ذلك الفتى بلقب زوجها فقد استاء جدا ، إذ اعتقد أنه رجل تزوجت به ، أو

اتخذها خطية له ، والاحتمال الأخير بدا له محتملا ، لأن الرجل ما يزال فتى . فى تلك اللحظة أراد قتلها ، ولكنه وقد تذكر النصيحة التى دفع مقابلها دوبلة ، قرر الانتظار .

فى الأصيل جلسا يأكلان ، حين رآهما معا جالسين على المائدة التى كانت ملك التاجر ، وجد فى نفسه الرغبة أكثر أن يخرج قاتلا إياهما .

لكن النصيحة التى اشتراها هدهدت من غلوائه ، وحين أقبل الليل رآهما نائمين في السرير ، فقد أعصابه ، واتجه إليهما ، وهو في الطريق عارم الغيظ تذكر النصيحة التى أسديت إليه ، فبقى ساكنا .

قبل أن ينطفئ القنديل CANDELA ، بدأت المرأة تقول لولدها ودموعها تنهمر :

- يا زوجى ، وولدى ، قيل لى إن مركبا قد وصل من تلك الأرض التى ذهب إليها أبوك منذ عشرين سنة . بالله عليك اذهب فى الصباح ، فربما أراد الله أن تعرف شيئا عن أبيك .

حين سمع التاجر هذا ، متذكرا أنه ترك امرأته حاملا ، أدرك أن هذا هو ولده ، لا تتعجب إذا قلت لك إن التاجر سعد كثيرا ، وشكر الله كثيرا الذى عصمه من أن يقتلهما كما كان يريد ، ولأنه إذا حدث ستكون جريمة بشعة ولأن الدوبلة استعملت فى مكانها الصحيح مقابل النصيحة فلم يفعل شيئا وهو فاقد الفكر .

فيا سيدى القونت ، بالرغم من أنك على صواب حين لم ترد تحمل الإغاظة التي سببوها لك ، فليس يجب أن تقرر شيئا قبل أن تتيقن من أن الصنيع حق ، لذا أنصحك أنه حتى يخبروك فلا يحملك الغضب ، خاصة إذا كان الأمر لا يضيعه الانتظار ، إذ يمكن أن تندم عاجلا من أى فعل متسرع.

رأى القونت أن هذه النصيحة حسنة ، فعمل بها ، وكانت عاقبتها طيبة ورأى دون خوان أن النصيحة جيدة ، فضمها إلى كتابه مشفوعة بهذه الأبيات :

الشئ الذى يثير الهواجس
يثير ندمك حين تجتلى الحقيقة

الحكاية السابعة والثلاثون

الرد الذى رد به القونت فرنان جونثالث على الناس بعد نصره فى معركة هاثيناس

مرة وصل القونت من الحرب شديد الإجهاد ، مسكينا ، منكسرا ، وقبل أن يستريح ، وصله نبأ حرب جديدة نشبت ، فنصحه الأقربون منه أن يستريح قليلا ، ثم يصنع بعد ذلك ما يبدو له صالحا ، فطلب القونت من باترونيو نصيحته ، فقال له :

- سيدى : لكى تستطيع أن تفعل ما هو مناسب ، يروق لى جدا أن تعرف ما قاله مرة القونت فرنان جونثالث لعبيده سأله القونت ماذا قال لهم :

أجاب باترونيو : سيدى القونت ، عندما انتصر القونت فرنان جونثالث على الملك المنصور ، مات فى المعركة أناس كثيرون من جيشه ، وبقى هو ومعظم العائدين معه مثخنين بالجراح ، وقبل أن يبرأ من علته علم القونت أن ملك نابارا غزا أرضه ، فأمر جنوده أن يستعدوا لحرب النابارييين ، فقال له جنوده إن الخيول مجهدة جدا ، ،كذلك الفرسان ، وبالرغم من أنه لهذا لم يؤجل ، فإن الواجب التأجيل ، لأنه هو وأتباعه مثخنون جراحا .

حين رأى القونت أن حماستهم فاترة ، أحس بالخجل أكثر من إحساسه بالتعب ، قال لأتباعه :

- أصدقائى : لا ندع السير من أجل الجراح ، فإن الجراح الجديدة الموجهة إلينا الآن ستنسينا الجراح التى أصابتنا فى الحرب الماضية .

حين رأى أتباعه أن جراح جسده لا تؤلمه ، دفاعا عن اسمه وشرفه ، تبعوه ، فانتصر القونت ، وغنم المجد .

فإذا كنت يا سيدى القونت تريد الدفاع عن سيادتك وعن أتباعك ، وعن شرفك ، فلا يمكن أن تشعر بالتعب ، ولا بالخطر فاعمل أكثر بطريقة تجعل العمل الماضر ينسيك العمل الفائت .

رأى القونت أن هذه النصيحة حسنة وعمل بها ، ورأى عاقبتها حسنة ، ورأى دون خوان هذه الحكاية حسنة فضمها إلى كتابه ، وشفعها بهذه الأبيات :

بصرت بالراحة الكبرى ، فلم أرها
تنال إلا على جسر من التعب

الحكاية الثامنة والثلاثون

« ما حدث لرجل كان يحمل جواهر ، فغرق فى النهر »

فى أحد الأيام قال القونت لباترونيو إن لديه رغبة شديدة أن يبقى فى مكان يعطونه فيه أموالا طائلة ، الأمر الذى يظن فيه فائدة جليلة ، لكنه يخشى إذا بقى فيه أن يلحق ضرر بحياته ، لذا يرجوك أن تمحضه النصح كى يفعل ما ينبغى .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت ، لكى تفعل ما أعتقد أنه صالح ، يروق لى أن تعرف ما حدث لرجل كان يحمل فوق كاهله أموالا طائلة ، وكان يعبر النهر .

سأله القونت ماذا حدث له ؟

قال باترونيو : سيدى القونت ، كان رجل يحمل فى عناء قدرا هائلا من الجواهر ، كانت كثيرة ، وتزن أثقالا ، حدث أنه كان عليه أن يعبر نهرا ، وبما أنه كان يحمل ثقلا ، غاص أكثر مما لو كان لا يحمل ، حين وصل إلى منتصف النهر ، بدأ يغوص أكثر ، وكان على الشاطئ رجل أنشأ يهتف عليه بصوت عال قائلا له إذا لم يطرح هذا الثقل فسوف يغرق بيد أن ذلك الأحمق لم يأبه به ولم يدر أنه إذا غرق فسوف يفقد جواهره كما يفقد حياته ، وإذا اطرحها فسوف يفقدها هى

ويغنم حياته ، ولئلا يفقد جواهره التى يحملها فلم يطرحها ، وطرح حياته فى النهر .

فيا سيدى القونت لوقانور ، بالرغم من أننى لا أستريب فى أنه من الصالح لك أن تجمع هذا المال وأى شئ آخر يريدون إعطاءكه ، فإننى أنصحك ، إذا كان ثمة خطر فى بقائك هنالك فلا تفعل رغبة فى الثراء ، كذلك أنصحك ، ألا تغامر بحياتك إلا دفاعا عن شرفك ، وأى شئ آخر ترونه واجبا ، فإن من يزن قليلا ، ويغامر بحياته طمعا ، أو حمقا فإنه لا يتطلع أن يصنع أشياء كثيرة ، وبالعكس ، فإن من يقدر ميزان نفسه ويقوم بعمل يقدره الآخرون أيضا ، فإنه الرجل الذى لا يحترم لأنه محترم فحسب ، بل لأنه يغنم تقدير الآخرين . فاقتنع بأن الرجل الذى يقدر ويحترم حياته ولا يغامر بها جشعا ، أو فى سبيل شئ ضئيل ، بل فيما هو حقا لا يغامر أحد مثله فى شئ حسن ، أو سريع مثل المقدر حقا ، والمحترم كثيرا .

راق جدا للقونت ذلك المغزى ، وعمل به ، وكان عاقبته طيبة ، ورأى دون خوان أن الحكاية حسنة ، فضمها إلى كتابه ، وشفعها بهذه الأبيات :

من يغامر بحياته جشعا

ففى مرات كثيرة يزول الشئ الطيب بسرعة

الحكاية التاسعة والثلاثون.

ما حدث لرجل مع طيور السنوز والعصافير .

« مرة أخرى كان يتحدث القونت لوقانور مع باترونيو مستشاره بهذه الصورة »

- يا باترونيو : لا أجد وسيلة لمنع الحرب مع أحد من اثنين من جيرانى فالأقرب إلى ليس فى قوة الآخر ، أرجوك أن تنصحنى ماذا أفعل .

أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور ، لكى ترى فى هذا الشأن ما يناسبك أكثر ، يجب أن تقف على ما حدث لرجل مع عصفور وسنونو .

سأله القونت ماذا حدث له ؟

قال باترونيو : سيدى القونت ، حدث لرجل ضعيف جدا أنه كان يتضايق من صوت ضجيج الطيور ، التى لا تدعه ينام فى هدوء ، فرجا أحد أصدقائه أن ينصحه ماذا يفعل كى يتخلص من العصافير والسنونو .

قال له صديقه ، إنك لن تستطيع التخلص من الاثنين ، لكننى أعرف حيلة بها تتخلص من أحدهما ! من العصفور أو من السنونو .

فقال له صاحبه ! بالرغم من السنونو يصيح بشدة ، ويغدو ويروح فهو محتمل أكثر من العصفور الذى يظل دائما فى المنزل .

سيدى القونت خذ عظة من ذلك ، وحارب أقرب جيرانك وإن لم يكن الأشد قوة .

رأى القونت أن هذه النصيحة حسنة ، واتخذ منها مثلا يحتذيه ، كذلك أعجب دون خوان جدا بتلك الحكاية ، فضمها إلى كتابه ونظم هذه الأبيات :

إذا لم تستطع الخلاص من الحرب ، فحارب

من هو أقرب إليك لا من هو أشد قوة .

الحكاية الحادية والأربعون

ما حدث للحكم ملك قرطبة

بينما كان يتحدث القونت لوقانور مع مستشاره باترونيو بهذه الطريقة :

- يا باترونيو : أنت تعرف أننى صائد ماهر ، وقد صنعت بعض الإبداعات فى فن الصيد ، وأدخلت بعض الإصلاحات المناسبة للشباك والأقنعة للصيد بالصقور ، والآن بعض من يريدون التدخل معى يسخرون منى فيما يتصل بهذا ، وعندما يمدحون السيد روى دياث أو القونت فرنان جونثالث بالنصر فى المعارك أو القديس المبارك الملك دون فرناندو لغزواته ، يمدحوننى منوهين بمهاراتى فى ما أضفته إلى الشباك والأقنعة . وبما أن تلك المدائح ليست طيبة أرجوك أن تشير على بما يجب أن أصنعه لئلا يتدخلوا معى فى الإضافات المفيدة كهذه .

أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور . لكى تعلم ما يناسبك صنعه أكثر يروق لى أن تعلم ما حدث للحكم ملك قرطبة .

سأل القونت : ماذا حدث له ؟ .

قال باترونيو : سيدى القونت : كان فى قرطبة ملك يسمى الحكم ، وهو وإن كانت مملكته تنعم بالسلام ، إلا أنه لم يتطلع إلى إشهار اسمه ، ولا ذكره ، كما يصنع كبار الملوك ،

الذين لا يلزمهم فقط الحفاظ على ما ورثوه ، بل الإضافة إليه بالوسائل المشروعة ، والمجاهدة فى أن يكونوا فى حياتهم نماذج ممدوحة ، لأنه بعد وفاتهم تبقى هذه الأشياء ذكرى لأعمالهم المجيدة ، وذلك الملك لم يكن مهتما بشىء من ذلك ، بل بالطعام ، والراحة ، والعيش بين الملذات .

حدث ذات يوم أن كان الموسيقيون يعزفون بين يديه بإحدى الآلات التى تروق العرب جدا ، تسمى البوق Albogon بدا للملك أن البوق لا يخرج الصوت الرائق المطلوب ، فأخذ البوق ، وأحدث به ثقبا فى الجزء الأسفل منه بجانب الثقوب الأخرى التى به ، بهذا الثقب خرج الصوت من البوق أفضل ، وبالرغم من أن الإصلاح هذا كان حسنا فى حد ذاته ، ولأن ذلك الصنيع كان ضئيلا بالنسبة لما تعود صنيعه الملوك ، فقد أنشأ الناس يمدحونه بطريقة ساخرة ، كأن يقولون حين يريدون مدح أحد : وهذه زيادة الحكم

Wah'adi Ziy'adat AL - Hakam .

فسارت الكلمة حتى وصلت إلى مسامع الملك ، حتى سأل عن معناها ، وبالرغم من أنهم فى البداية لم يرغبوا فى إخباره إلا أنه ألحف حتى عرف المعنى فى النهاية ، حين عرف تضايق جدا ، و بما أنه كان ملكا صالحا ، فلم يشأ أن يعاقب القائلين بها ، بل إنه نوى عمل إضافة أخرى تجبر الناس على مدحها بنظر سليم ، وبما أن مسجد قرطبة لم يكن قد تم

آنذاك ، فقد أضاف إلى المسجد ما ينقصه وأتمه . وهذا المسجد هو المسجد الجامع وأجمل مساجد المسلمين فى إسبانيا ، والحمد لله الآن تحول إلى كاتدرائية قرطبة ، وهى مخصصة للسيدة العذراء بفضل الملك المقدس دون فرناندو الذى غنم المدينة من المسلمين .

أتم الملك الحكم المسجد ، وأضاف تلك الزيادة المناسبة ، كان حتى ذلك الحين يمدح بالزيادة فى البوق ، وينتظر مستقبلا أن يمدح بزيادته فى المسجد ، وفى الواقع أصبحت العبارة التى كانت تقال مدحا بسخرية ، مدحا حقيقيا ، حتى أيامنا هذه يقول المسلمون لمدح شىء عظيم ، وهذه زيادة الحكم .

سيدى القونت : إذا كنت متضايقا ، وتفكر فى السخرية التى تمدح بها لزيادتك فى الشباك والأقنعة والأشياء الأخرى المخترعة التى أدخلتها فى فن الصيد ، فحاول أن تصنع أشياء ضخمة من قبيل ما يصنعه كبار الرجال ، ومن هنا لا يجد الناس مناصا من مدحك بإخلاص لما صنعته ، بنفس الطريقة التى يمدحونك بها ساخرين من إصلاحاتك وتجديداتك .

رأى القونت أن هذه النصيحة حسنة ، وعمل بها ، ورأى ثمارها الطيبة ، وقد رأى دو ن خوان حسن هذه الحكاية فضمها إلى كتابه وشفعها بهذه الأبيات :

إذا صنعت شيئا غير جليل

فـاصنـع أيضـا مـن جـلائـل الأعـمـال
مــــا يتـــحـــدى ذكـــرهـا المـوت

الحكاية السابعة والأربعون

ماحدث لمسلم مع أخت له كانت تقول إنها شديدة الخفر

بينما كان يتحدث القونت لوقانور ذات يوم مع مستشاره باترونيو قال له :

- باترونيو : تعلم أن لى أخا شقيقا أكبر منى ، ولذا أطيعه وأجله ، وهو معروف بالذكاء وبأنه مسيحى صالح ، لكن الله أراد لى أن أكون أكثر مالا وأعز نفرا منه ، وبالرغم من أنه لايشير إلى ذلك ، إلا أننى على يقين من حقده على ، فى كل مرة أحتاج إلى عونه ، أو أصنع شيئا لصالحى ، يقول لى لا تفعله لأنه إثم لدرجة أننى ألوم نفسى لطلبى إياه ، وبالعكس ، حينما يحتاج إلى عونى يقول لى حتى ولو ضاعت الدنيا كلها فإنه يجب علي أن أخاطر بحياتى وبأموالى لأعينه . وبما أن هذا قد حدث مرارا عديدة ، فإننى أرجوك أن تشير علي بما تراه وبما ينبغى أن أفعله .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت : يبدو لى أن تصرف أخيك ، من الجدير بك أن تقول له ما قاله مسلم لأخته .

سأله القونت : وماذا قال ذلك المسلم .

- قال باترونيو : سيدى القونت : كان لأحد المسلمين أخت كانت شديدة الرقة لكل ما تراه أو لكل ما يفعلونه معها لدرجة توحى بأنها خائفة ، وفزعة .حتى أنها كانت حين تشرب ماء من القلل التى يستخدمها المسلمون ، والتى

تحدث بعض صوت حين الشرب ، كانت تفزع جدا من ذلك الصوت وعلى وشك الإغماء ، وكان أخوها المسلم فتى حصيفا ، إلا أنه فقير جدا ، ولأن الفقر يدفع بالمرء إلى أن يفعل ما لا يريد ، فقد كان يغنم قوته بطريقة فيها شيء قليل من عدم الاحتشام ، عندما يموت شخص ما يذهب ليلا إلى المقبرة ، ويسلب المرء كفنه وكل ما يحويه . ويعول أخته التى كانت تعرف مهنته .

ذات يوم دفن رجلا ، شديد الثراء ذووه ، وكفنوه بثياب فخمة ، وفيها أشياء قيمة ، حين عرفت الأخت المسلمة قالت لأخيها إنها تود أن تصحبه تلك الليلة إلى المقبرة لمساعدته فى إحضار ما يحمله ذلك الميت ، وحين حل المساء ذهب الأخوان إلى المقبرة ، وعند فتحها رأيا أنهما لا يستطيعان خلع تلك الأكفان الغالية إلا بتمزيقها أو بقطع رقبة الميت ، فى حالة الاختيار هذه حارت المرأة بين قطع رقبة الميت أو تمزيق الكفن الذى سيفقد كثيرا من قيمته أخذت بلا حزن ولا شفقة رقبة الميت واحتزتها ، بهذه الطريقة خلعت الأكفان ، وحملا كل ما لدى الميت وذهبا من هناك .

فى اليوم التالى ، وهى جالسة على المائدة ، وبدأت تشرب وكركرت القلة ، أبدت المرأة أنها على وشك الإغماء خوفا من الصوت الحادث ، حين رآها أخوها تذكر شجاعتها وتصميمها

حين شرعت فى حز عنق الميت قال لها بالعربية :

– آه يا أختى : تفزعين من البقبق ، ولا تفزعين من فتق العنق .

فصارت العبارة مثلا لدى المسلمين

فيا سيدى القونت لوقانور : اعلم أن أخاك الأكبر يعتذر عن فعل ما هو صالح لك قائلا إنه إثم عظيم ، بالرغم من أنه ليس بهذه المثابة ، وبالعكس يعتقد أنه يجب عليك أن تفعل كل ما يطلبه ، ولو كان إثما عظيما ، ويضرك .

هذا هو نفس ما تفعله المسلمة التى تخشى صوت الماء ، ولا تخشى حز رقبة الميت ، إذن من العدل أن تكافئه بأن تقول له قولا حسنا حين يطلب منك شيئا ، وأن تحسن التعامل معه ، وافعل ما لا يضرك وما يناسبك ، وفيما يسبب ضررا لك اعتذر له دائما بطريقة مهذبة قدر ما تستطيع ، ولكن لا تفعله مطلقا .

رأى القونت فى هذا مشورة صالحة ، وعمل بموجبها ، وكانت عاقبتها حسنة ، وحين رأى دون خوان هذه الحكاية حسنة ضمها إلى كتابه ، وختمها بهذه الأبيات :

إذا لم يرد أحدا فعل ما هو مناسب لك

فلا تعرض للخطر ما تفقده لأجله .

القسم الثالث من كتاب
القونت لوقانور وباترونيو

باترونيو يريد أن يعتذر عن عدم متابعة الحديث

قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : بعد أن انتهى الكتاب الأول ، تحدثت فى الثانى بطريقة أكثر كثافة ، وغموضا لأننى فهمت أنك أردت أن أصنع ذلك . وبالرغم من أن ما قلته فى الثانى أقل كلمات من الأول فإنك تعلم أنه ليس أقل فائدة ومعرفة من الأول ، بل لأن من فى وسعه دراسته وفهمه أكبر ، وبما أننى أعتقد أنك كنت جذلان بالأمثال فى الأول ، فإننى أشكرك كثيرا لو تفضلت بالسماح لى أن أستريح من الآن فصاعدا .

- أجاب القونت لوقانور : باترونيو : حسنا ، إنك تعلم أن ثمة ثلاثة أشياء لا يشبع منها الناس ، بل انهم نهمون إليها دائما . الأولى : العلم ، والثانية : التقدير والاحترام ، والثالثة : المال الذى نحتاجه للحياة . وبما أن العلم حسن جدا أعتقد أنه لا ينبغى أن تلومنى إذا أردت دائما أن أزيد محصولى منه ، وبما أننى أعرف أنه لا أحد أفيد منه مثلك فتأكد أننى ما دمت حيا فلن أدع أبدا تعجلك لكى تعلمنى كل ما يمكننى تعلمه منك .

- رد باترونيو : سيدى القونت لوقانور : لأننى أرى حكمة حسنة ، ونية حسنة تحرك ما تريد فإننى أقول لك إننى

مستعد للعمل أكثر ، وأقول لك ما يبدو أننى لم أقله بعد ، لأن قول شيء واحد أكثر من مرة ، إن لم يكن لمنفعة خاصة يبدو أنه يكون من أن الذى يقوله يعتقد أن الذى يجب أن يفهمه أحمق جداً لا يفهمه دون أن يستمع إليه مرات ، أو يريد أن يضخم الكتاب دون أن يعرف ماذا يصنعه فيه ، وما أقوله من الآن يجب أن يبدأ هكذا .

- الغالى غال ، وعسير الاحتفاظ به ، وينتهى وشيكا ، والرخيص رخيص ، ويتكلف يسيرا وكذلك ينتهى وشيكا لكنه يمكن أن يأتى بجهد يسير ، الغالى غال ، والرخيص رخيص .

- المدهش جدا ، أن المرء يثق ويتعامل جيدا مع من تعامل معه سيئا من قبل ، أو ابتعد عنه دون باعث حقيقى بالرغم من أنه قدم له واجبات كثيرة ، فلا عليه بعد ذلك أن يندم .

- لا ينبغى لأحد أن يعتقد فيمن لا يجرؤ أن يسانده من أجل آخرين هو نفسه يجرؤ أن يساندهم .

- من يريد أن يعوق آخر ، فعليه أن يفكر أيضا أن ذلك الآخر يمكنه تعويقه

- العقل يحفظ العقل .

- العقل يجعل من الناس حكماء ، وإن كانوا غير شديدى الذكاء .

- بدون العقل لا يمكن أن يكون المرء على الدوام عاقلا .

- هذا هو الله ، وهذه هى أفعاله ، والذين يكثرون الحديث عنه لا يعرفونه جيدا .

- بعقل يتصرف من لا يستطيع أن يغنم صداقة آخر ، ويمنع ما يجلبه أعداؤه .

- يخطىء من يريد أن يعرف من الآخرين كل مايعرفونه ، ويصيب من يعرف فقط ما هو صالح .

- النصيحة حسنة حتى تكون كبيرة ، بمعنى أنها إذا كانت باعثا للنصائح كثيرة جيدة ، يقدر النصيحة ذلك الذى فى ذرعه أن يحول النصيحة السيئة إلى حسنة ، فالنصيحة السيئة سيئة فى الأفهام الجيدة .

- النصيحة الحسنة تثمر فى الذهن الحسن .

- يتصرف جيدا ذلك الذى فى وسعه أن يبذل ويستقبل النصيحة ، ويريد أن يعمل وفق النصيحة الحسنة .

- المصائب الكبرى تنسينا المصائب الصغرى .

- مثل الذى عليه أن يتحدث فى أشياء كثيرة فى وقت واحد كمثل من عليه أن يلف كبة خيوط كبيرة بأطراف كثيرة .

- كل الأشياء تولد صغيرة ، ثم تكبر ، إلا المصيبة فإنها تولد كبيرة ثم تأخذ فى الصغر كل يوم .

- الذى يحترم الآخرين يحظى منهم بمثل احترامه .

- تقدير الآخرين يحفظ تقديرك ذاته .

- العاقل يحوّل سم الأساود إلى ترياق ، أما الأحمق فإنه يستخرج السم من الدجاجة .

- من يسلم السلطان الذى لديه فلا يكون موقنا بعودته إليه .

- ليس بالعاقل من يفقد ماله ونفوذه لإثراء مال الآخرين ونفوذهم .

- لا يفعل الخير من ينتظر الثواب ، فمن يفعل خيرا حسبه أن يعلم أن الخير سبيل إلى الخير التام .

- الخيِّر يفعل الخير .

- عمل الخير لحاق بالخير السامى .

- الطعام الردىء ، والأعراف السيئة تجعل جسومنا وأموالنا ، وجاهنا فى خطر .

- من يغتم كثيرا بما فقده ولا يستطيع تعويضه ، ومن يخشى من الخطر الذى لا يستطيع منعه ، لا يتصرف بحكمه .

- يتكلف عملا كثيرا من يستقبل شيئا من البخيل ، مثل الطلب الملح من الشحيح .

- البرهان وسيلة إلى براهين جديدة .

- بالعقل يكون الرجل كائنا عاقلا .

- الحكمة تعطى الحكمة .

- الحكمة تجعل الرجل رجلا ، حين يكون أكثر حكمة يكون أكثر رجولة ، وحين يقل يقل ، والرجل الذى لا يهتدى بالحكمة

ليس رجلا ، بل يتحول إلى غير حكيم .

- الألم الذى يصيب يحتمل بالصبر ، وبعد ذلك يزول بالملذات التى يستمتع بها مع الرخاء .

- عدل أن يعيش التافهون فى سوء ، ومن ينفذون رغباتهم السيئة .

- حقا الذين يجحدون الله ، من الطبيعى ألا يدافع الله عنهم .

- إذا كان الرجل رجلا ، يكون أكثر رجولة إذا كان رجلا طيبا .

- إذا كان الرجل رجلا بحق ، فهو رجل طيب ورجل عظيم ، مثلما الرجل الكبير إذا صغر فهو رجل سيء ، فقط الرجل الطيب يمكن أن يكون كبيرا ، وإذا كان الرجل الكبير غير طيب فهو سيء وصغير ، وخير له ألا يكون قد ولد .

- الكرم على خصائصه ، والزهد على الثراء ، والعفة فى الشباب ، والتواضع على عظمة تجعل المرء شهيدا دون حاجة إلى إراقة دماء .

- من يرغب فيما هو أعلى منه ، ومن يتعمق فى خفايا الاشياء فإنه لا يعمل بحكمة .

- عدل من يتلقى من أبنائه ما تلقاه أبوه منه .

- الكثرة سبب الوفرة ، وأكثر علما من يضاعف الكثرة ، بالكثير تصنع الكثير ، ويدع القليل من أجل الكثير بهذا لا

تنقص ثروته .

- القلة تصلح الكثرة .

- وجه رغباتك نحو الكثير .

- يقدر المرء إذا كان حقا متواضعا ، ويجد نعما أكثر نحو الله .

- ليس من الصالح للمرء أن يرى ما يريد الله أن يظل مستورا .

- ببركة الوالد تحفظ بيوت الأبناء ، وبشر الأم تسوخ حتى الأساس .

- تفترض المعرفة حين يتسع السلطان .

- بالمعرفة العميقة ، والإرادة الطيبة ، والاعتقاد فى أن الله مصدر كل قدرة ، وأن بنعمته نصل إلى القدرة ، يزيد السلطان .

- من يريد زيادة شرفه ، وشرف نظرائه فليحاول ألا يخافه الصالحون وأن يخافه الأشرار .

- الشك والتسآل سبيلان إلى الحقيقة .

- لا ينبغى لأحد أن يمل الآخرين لعيب واحد فيهم ، فمن الذى ترضى سجاياه كلها .

- الخطأ خطأ ، ومنه تولد أخطار أخـــرى ، ومن الخطأ الضئيل تتولد الأخطاء الكبرى ، فالخطأ المنبعث عن خطأ تنتج عنه دائما أخطاء كثيرة ، ولا يمكن أن ينتج إلا هذا .

- ليس بالعاقل من يتصارع مع صديق الحق ، والحقيقة ، ولا يبتعد عنهم .

- سهل جدا البحث عن المال وفقده ، أو البحث وفقد الجيش ، بل الصعب جمعها وأصعب منه الحفاظ عليها .

- العاقل من لديه قوة أكبر من قوة أعدائه ، وقوة أصغر من قوة نصرائه .

- القوة لا تجبر أحدا أن يخدم بها . القوة تصارع قوة أخرى ، بل ربما دون أى تعسف ، ليس من القول المحكم ما يقال أحيانا من أن القوة تزيد القوة ، حيث يمكن الاعتذار فمن الخير عدم استخدامها .

- العاقل من يهتدى بما حدث للأسلاف .

- عندما يتحسن وضعنا تتولد طموحاتنا ، وعندما يسوء تزيد الهموم .

- المرض لا يداوى بالألم ، بل بالدواء السائغ .

- الحب يزيد الحب ، حين يكون الحب حسنا فهو حب ، الحب المتوالى ليس حبا ، الحب يمكنه أن يحول الحب الكثير إلى كره .

- ثمة هموم تسمو بنا ، وأخرى تقعى بنا .

- ما دام معكنا من الأفضل أن نُقدر بالحسنى لا بالقوة .

- الأمناء يقولون الحقيقة ، والتافهون يقولون ما يريدونه

- الحياة الحسنة هى الحياة وتمنح حياة .

- الذى لا حياة له لا يمكنه بذلها ، والذى له حياة يمنح حياة
- الحياة الرديئة ليست حياة .
- العيش دون حياة ليس حياة .
- الذى لا يمكنه أن يحيا يحاول أن يحيا عفيفا .

القسم الرابع من كتاب القونت لوقانور وباترونيو

أدلة باترونيو للقونت لوقانور

- قال باترونيو : سيدى القونت لوقانور : لأنى فهمت أن رغبتك ، وإلحاحك فى ما طلبته منى ، ولأنى رأيت خلوص نيتك ، أجاهد أن أقول لك بعض أشياء أكثر مما قلته لك فى القسم الأول من هذا الكتاب الذى يضم خمسين حكاية سهلة جدا فى فهمها ، وفى القسم الثانى مائة مثل بعضها فيما يبدو لى فيه شىء من العسر وبعضها الآخر ما يزال يسيرا بما فيه الكفاية ، وفى القسم الثالث وضعت خمسين مثلا أشد غموضا من الحكايات ، والمائة المثل . هكذا بالحكايات والامثال أكون قد وضعت مائتين ما بين حكاية ومثل ، وإن كنت أعتقد أنها أكثر من ذلك ، لأن الحكايات الخمسين تجدون فيها بعض الأمثال الجيدة ، والمفيدة ، كما هو الحال فى الأقسام الأخرى المخصصة تماما للأمثال . ولذا أؤكد لك أن أى أحد يعرف كل هذه الحكايات وهذه الأمثال ، ويتبعها ، ويفيد منها سيجنى منها خلاص نفسه ، وحفظ ماله ، وجاهه ، ومركزه ، وسمعته ، إذ أننى أعتقد أن فيما قلته فى هذا الكتاب كل ما يحتاجه لكل هذه الأمور . فإذا أردت أن تحكم بالعدل فيجب عليك مستقبلا أن تدعنى أستريح .

- أجابه القونت : باترونيو : لقد قلت لك أننى أقدر

كثيرا المعرفة التى تريد تحقيق ما يمكن ، ولذا لن أدع لأى سبب ما كان ذلك فى يدى لأفهم كل ما أستطيعه ، ولأنى أعرف أننى لا يمكن أن أجد أحدا يفهم فهمك ، فإنى أؤكد لك أننى لن أدع سؤالك - مدى حياتى - وبإلحاح لكى أفهم ما أستطيع .

- أجاب باترونيو : سيدى القونت لوقانور : ما دام الأمر هكذا ، وكما تريد ، فإنى أقول لك شيئا وحسب فهمى ، حتى الآن لم أقله لك ، بيد أنى أرى أن ما قلته لك كان سهلا فى إدراكه ، ومنذ الآن - وفيما سيجىء - أقول لك أشياء أكثر غموضا ، وأشياء أخرى سأتبع فيها البساطة نفسها : وإذا ألحفت أكثر فيجب على أن أحدثك بطريقة تواكب متعة ذهنك لكى تفهمنى .

- قال القونت : باترونيو : حسنا ، أفهم أنك تقول لى هذا بغضب ، وضجر من إلحاحى ، وإن كنت سابقا حسب فهمى المتواضع قد أردت أن تحدثنى بشىء واضح قبل الشىء الغامض ، أعتقد مع ذلك أنه من المناسب لى ما تقوله الآن ، إذ أننى أفضل أن تقول لى كل ما هو غامض كما تريد ، ولا تترك لإفهامى شيئا تعرفه .

- رد باترونيو : سيدى القونت لوقانور : إذا كان هذا ما تريد ، فتأمل جيدا من الآن ما أقوله لك :

- أشياء كثيرة تبدو عظيمة فى الماضى ، واليوم لا تبدو

كذلك لا عظيمة ولا محترمة .

- كل الرجال ينخدعون حين يقدرون شجاعة أولادهم ، وفضائلهم ، واستعداداتهم في الغناء .

- نقص كبير في التعقل يبرهن في صاحبه أنه يرى أخطاء الآخرين كبيرة بينما يرى أخطاءه صغيرة .

- من الثقة المفرطة يتولد الازدراء .

- على الرجل دائما أن يتقدم المداخل الخطرة والعاجلة ، على الأقل حتى يختفي الخطر .

- لا يجب أن يتحدث أحد أمام آخر في ثقة مفرطة إلا إذا عرف الصلة بين فهمه وفهم صاحبه .

- من يرى الألم الذي يعانيه الآخر يجب أن يحتاط لئلا يعانيه .

- لا ينبغي أن يعتقد أحد أنه عالم ، كما لا يجب أن يكتم علمه إلا محتاطا .

- لا يتمتع بصحته ، ولا بماله من لم يعان فقدهما

- لا يعمل وفق التعقل من يسر ، ويريد خدمة السيء الكذوب .

- يعمل الحكماء أشياء كثيرة ، بلطف ومودة أكثر مما يعملونها بتعسف وبقسوة .

- العاقل من لا يشاقق من هو أقل منه وأشد تعقلا من لا يشاقق من هو أعلى منه .

- الحكيم يجب أن يبتعد بنفسه عن الأشرار خاصة إذا اعتقدوا أنهم لا يصنعون شرا متفقين معه .

- من يتصارع مع القوى يضع نفسه فى خطر ، ومن يتصارع مع نظيره يضع نفسه فى خطر محتمل . ومن يتصارع مع من هو أقل منه يبوء باحتقار الآخرين له ، الخير أن تكافح لتحيا محترما وفى سلام مع الجميع .

- الذى يستدل بميزاته وحده لا يكون ممدحا ، لكن الأحمق يعرف بأنه يدلى بسره لمن لا يثق فيه أحد .

- أشد فائدة للأكثرين العيش فى حذر ، شريطة أن يكون فى سلام ، وبدون أى صراع .

- أكثر مناسبة للرجل القلب المكبوح ، وإذا لم يكن لديه ، فيجب على الأقل أن يكبح جماح جسده .

- الإنسان التام ، والناصح الأمين ذلك الذى يعرف كيف يحتفظ بسره ، ويبرأ من الطمع ، ذلك هو الرجل الحصيف .

- خير لنا أن نفكر بهدوء فيما يناسبنا أفضل من التفكير فى ملذاتنا وتلهيتنا .

- بالتعسف ، والفقر ، والعشق المفرط للنساء ، والخمر ، وبالملذات ، وبالمظالم ، والجور ، وبالأعداء الكثر ، والأصدقاء الأقل ، يفقد المرء أرضه ، وحياته .

- العفو بسهولة ، يجزىء علينا من حولنا .

- الغم يجعل الطعام السائغ غير سائغ ، أما السرور فإنه

يجعل غير السائغ سائغا .

- من الضرورى التعقل الكثير للإعداد - طوال وقت كثير

- لثأر دون أن ندرى .

- غير معقول أبدا أن يحاول الأحمق أن يكون كاتما للسر مثله مثل كاتم السر أن يريد فى بعض الأحيان أن يعمل عمل أحمق .

- صعب مجاهدة الأعداء طوال وقت كبير ، وأصعب منه مجاهدة النفس .

- فى الحقيقة : سيء ذلك القول ما يقوله المرء ليفرج عن نفسه ، لأنه لم يستطع الصمت ، ولجهله .

-عاقل ذلك الذى لا يريد الشروع فى عمل لأنه ليس له ما هو لازم لإتمامه .

- لا يجب أن يتعهد المرء للآخر بأشياء أكثر مما يستطيع عملها فى الواقع .

- حينما يعمل المرء عملا طوال وقت كبير بطريقة معينة يمكنه أن يعتقد أنه سيظل يعمل هكذا .

الفهـــرس

المؤلف

العنوان	النوع
١- الخوف من المطر	شعر
٢- لزوميات وقصائد أخرى	شعر
٣- هدير الصمت	شعر
٤- مقام المنسرح	شعر
٥- أغاني العاشق الأندلسي	شعر
٦- المازني شاعرا	دراسة
٧- أدب ونقد	دراسة
٨- شعراء ما بعد الديوان جـ ١	دراسة
٩- شعراء ما بعد الديوان جـ ٢	دراسة
١٠- في الشعر العماني المعاصر	دراسة
١١- دراسات نقدية	دراسة
١٢- خاتمان من أجل سيدة	مسرحية مترجمة
١٣- خمس مسرحيات أندلسية	مترجم
١٤- مقامات ورسائل أندلسية	مترجم
١٥- تأثيرات عربية في حكايات إسبانية	مترجم
١٦- فصول من الأندلس في الأدب والنقد والتاريخ	مترجم
١٧- قلبان وظل	مترجم
١٨- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	مترجم
١٩- حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي	تحقيق ودراسة
٢٠- القونت لوقانور	دراسة وترجمة

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٥ ،٣٤١٥

I.S.B.N

777-200- II3-6

دار الهاني للطباعة
شبرا الخيمة ت.: ٢٢١٢٠٥٥